قصص شعبية جزائرية

سعيد هاشمي

قصص شعبية جزائرية

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2007.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-672-5
الإيداع القانوني : 180-2006

الإهـــــداء

- إلـى أمّي

- لولا مجهودها ما وصلت إليّ هذه القصص الجميلة..

- إلى روحها الطاهرة أهدي هذا الكتاب، الذي هو في الأصل كتابها.

سعيد

مـقـدمـة

يقدّم الكتاب حكايات شعبية «ثِمشُها»، كما يرويها سكان منطقة (إبحريان) شمال (ثمقوط)، وقد تروى هي نفسها بشكل آخر في مناطق أخرى. وقد حاولتُ الحفاظ على شكلها كما بلغتني.

تجول بنا الحكايات في عالم يمتزج فيه الخيال بالواقع، وتتفاعل فيه الكائنات الخرافية بشخصيات حقيقية لتعبّر عن الطبيعة البشرية والمعاني الإنسانية.

حكايات تصوّر ذلك الحلم الذي يراود كل فتاة في أن تتزوّج فتى وسيما، شجاعا، صبورا، حنونا، يبذل أقصى ما يستطيع للارتباط بها ولا يتردّد في خوض الأهوال من أجلها. كما تنقل رغبة كل شاب في الفوز بفتاة جميلة ذكية، ومستعدة لترك كلّ شيء من أجله. ولا يتحقق هذا الحلم إلا بتعاون الاثنين على مواجهة الصعاب، على أن يكون كل منهما وفيّا للآخر وفاء تاما. ولا يقل مجهود

المرأة عن مجهود الرجل في تجسيد هذا الحلم، ودورها أساسي في سير الأحداث .

ولعل هذا وجه مقابل لحقيقة الحياة في ذلك الزمن، لأن الزواج تقيّده القوانين الاجتماعية السائدة والعادات الصلبة، فلا الشاب يستطيع اختيار زوجته بإرادته إلا نادرا ، ولا الفتاة تستطيع أن تمانع في الارتباط بزوج اختاره أهلها . والرجل يرى نفسه سيّد الكون، ودور المرأة فيه ضئيل هيّن. والحكاية تقدّم دليلا لنفي هذا الاعتقاد تماما . وأنّ الرجل لا ينجح في مسعاه إلا إذا ساندته المرأة.

وبلوغ الأمنية كما سنرى في الحكايات مقرون بالانتصار على الغول. فهذا الحلم الذي يراودهما يبدو مستحيل التحقّق، أو كأنّه مسجون بين مخالب العادات والتقاليد. ولتحريره لابّد من التضحية والاستعداد للصراع العنيف. ولابّد من تعاون الفتى مع الفتاة للانتصار على هذه القوى المكبّلة لآمالهما وطموحهما .

وتصور حكايات أخرى قوّة الروابط الأخوية. أو تجسّد عواقب الحقد والغيرة والحسد. أو تصوّر طبيعة الانتقام في النفس البشرية، فالانتقام من الباغي لا تخلو منه أغلب الحكايات، ودائما تمجّد الوفاء والإخلاص والاجتهاد والمثابرة والتعاون.

ويصل البطل إلى غايته بعد امتحانات وتجارب شاقة ينتصر فيها بفضل مساعدة عناصر مختلفة : بشرية،

خرافية، طبيعية، وسحرية. وبفضل صبره وذكائه وحيلته، ومثابرته على السعي للوصول إلى أمنيته وتحقيق أمله. فلا شيء يعصى على الإرادة الإنسانية إذا حالفها التصميم والإصرار.

وهي، على الرغم مما تبثّه من أمل في وجود هذه الحياة الجميلة والتحريض على البحث عنها، صارت كأنّها حكايات تروى للتسلية والترفيه عن أمور بعيدة توجد في عالم آخر غير الذي يعيش فيه البشر حياتهم القاسية، وصراعهم المستمر مع الأرض والطبيعة للحصول على لقمة العيش. وسردها مرتبط بدخول الليل، فالنهار خصص للعمل. ولكي لا يطالب الأطفال بها في النهار يحذّرهم الكبار من ذلك بقولهم : الحكي في النهار يسبب العمى !

وهذه الحكايات، التي نعتبرها جزءا من تراثنا الثقافي، قد أدّت دورا إنسانيا وتربويا وتثقيفيا هاما وثمينا في الأسرة الريفية. فالجلسة العائلية حول أحد كبار الأسرة : وعادة ما تكون الجدّة أو الأم، وقد يكون الجدّ أو الأب تساهم في تعزيز الروابط بين أفرادها. وتؤثر الحكاية في نفسية الطفل تأثيرا إيجابيا، بما تبثّه في نفسه من الانشراح والراحة النفسية، وبما توفّره من حرارة العلاقة الإنسانية بين الراوي والمستمع، وتقوية الإحساس العاطفي بين الأطفال والوالدين. كما أنّها تصوّر تجارب كثيرة، وأمثلة وحكما يستضيء بها الطفل والشاب في حياته، وفي تصرفه مع

غيره. فما يحدث في الحكايات مرتبط بالواقع بشكل من الأشكال، ويبقى راسخا في الذهن مدة طويلة وربّما العمر كله. ومنها يستخلص العبر ويتدرّب على التفكير والتدبير واستعمال عقله قبل الإقدام، كما تدفعه إلى المغامرة إذا أوجبها تحقيق هدفه، ويتعلّم التمسك بطموحه ومواجهة العقبات بشجاعة. وأن الذي يبدو مستحيلا في مظهره ممكن في حقيقته. على الرغم من أن سماعها مشافهةً له جاذبية وتأثير لا تضمنهما القراءة إلا أنّها تبقى محافظة على كيانها وقيمتها الفكرية ومغزاها الاجتماعي والإنساني.

ونشير هنا إلى أن الحكايات يبدأها الراوي بالمفتاح المعتاد (أماشهو ! حكايتي تستوي كالحزام الطويل، بمعنى كامل ووجه جميل، ومن قال (آهو سيزهو)، وينهيها بعبارة (رويتها لأبناء الأجواد، الميّت الله يرحمه، المريض الله يشفيه، والسليم الله يباركه ويطيل عمره).

كم هي حلوة تلك الليالي التي يُحيط فيها أفراد الأسرة بالأم أو بالجدّة للاستماع إلى حكاية من الحكايات الكثيرة. خاصة في ليالي الشتاء حول الكانون المشتعل.

ومع سماع (أماشهو!..) ويجيب الحاضرون (آهو !) يسود السكون التام بالمنزل، وتنقاد الأذهان كليّة لما يروى ويطير الجميع بخيالهم إلى عالم عجيب جميل وجذّاب.

س. هاشمي.

الطائر الغريد

أماشهو !

عن سلطان، ولا سلطان إلا الله، مرّ قرب ثلاث نساء يحتطبن، وهو يقود قطيعا من الغنم، كثير العدد، جذّاب المنظر، جميل الصوف. ولفت انتباههن القطيع الضخم.

فقالت إحداهن :

ـ أمنيتي من الله، أن أتزوّج صاحب هذا القطيع الجميل، وأنسج غطاء، ينام عليه مائة ويتغطى به مائة !

وقالت الثانية :

ـ أهذا كل ما تتمنينه ؟! أمنيتي من الله، أن أتزوج صاحب هذا القطيع، وأصنع كسكسا أملأ به قصعة كبيرة أتناوله معه !

وقالت الثالثة :

ـ أهذا كل ما تتمنيانه ؟! أنا أتمنى الزوّاج بصاحب هذا القطيع، وأنجب منه ذكرا ذا جبهة ذهبية، وبنتا جانب من شعرها فضي وجانب ذهبي ! وكان يستمع إلى أقوالهن فتزوّج ثلاثتهن معا، وقال لهن :

ـ على التي تمنّت الكسكسي أن تصنعه. والتي تمنّت فراشا أن تنسجه. والتي تمنّت الولد والبنت، أن تنتظر عطاء الله فهو القادر على تلبية أمنيتها.

وحقّقت كل منهما أمنيتها. وحبلت صاحبة الولد. وانزعجت رفيقتاها واتخذتاها موضوع حديث دائم، مشحون بالتهكّم والغضب. انتقل الانزعاج إلى الخوف. وتحوّل الغضب إلى غيرة دفينة سرت في أعضائهما، وسكنت نظرتيهما وقلبيهما. ولم تعودا تفكران إلا في أمر هذه المرأة.

حان الوضع، وولدت طفلا كما تمنّته. فألهبت الغيرةُ مشاعر المرأتين، وقرّرتا التخلّص من الرضيع فهددتا القابلة :

ـ عليك أن تتخلصي من الرضيع بأية طريقة كانت !

فقمطت القابلة جروا، ووضعته مكان الرضيع. ووضعت الرضيع في علبة، وقذفتها في البحر. جرت المرأتان إلى زوجهما لتخبراه بالمولود، وهما تظهران الشفقة على الوالدة.

ـ المسكينة، ولدت جروا !

فأقبل الزوج عليها غاضبا، ووبّخها توبيخا مقرعا. وهي تبكي وتقسم أنّها ولدت طفلا وسيما. فحذّرها، إن حدث هذا مرة أخرى، سيكون عقابها شديدا.

الصبيّ نائم في العلبة يحتضنه البحر. الأمواج تسلّم العلبة بعضها إلى بعض، وتدفعها. حتى وصلت شاطئا، كان أحد الصيادين يلازمه. ويعيش مما يقذفه البحر. وهو على وشك العودة إلى داره، ولم يصطد في ذلك اليوم شيئا، رأى العلبة.

ـ ما هذا ؟! لن أذهب حتى تصل تلك العلبة، وأرى ما بداخلها.

ووجد الرضيع. فحمله إلى زوجته فرحا

ـ انظري يا امرأة، هذا طفل رماه البحر إلى الشاطئ!

ـ يا فرحتاه يا زوجي! وأنا ولدت طفلا آخر.

ومضى الزمن. حبلت زوجة السلطان، وولدت بنتا كما تمنّتها. فأمرت ضرتاها القابلة بالتخلص منها. وفعلت بها مثل مافعلت

بأخيها. ووضعت مكانها قطّة. وجرت الضرتان إلى السلطان، وقالتا له في عبوس :

ـ أوه يا سيدي ! إن زوجتك قد ولدت قطّة ! ويظهر أنها لا تلد العباد !

فاشتدّ غضبه ووبخها توبيخا شديدا وهي تبكي وتؤكد أنها بريئة، فصاح في وجهها

ـ المرأة التي تلد وحوشا، لا تستأهل العيش مع البشر !

وربطها إلى المذود مع الحيوانات.

قادت الأمواج العلبة إلى الشاطئ الذي انتهى إليه أخوها. وكان الصياد نفسه هناك. انتظر العلبة حتى رست على الشاطئ فتحها ليجد بداخلها الرضيعة.

حملها إلى زوجته، وقال لها في انشراح ظاهر :

ـ لقد أهدى لنا البحر فتاة جميلة !ـ

ـ يا فرحتاه ! وأنا كذلك ولدت بنتا ..

ومنذ ذلك الحين لم يعد الصياد يعتمد على البحر في رزقه.

تربى الطفلان في كنف الصياد وزوجته.كبّرهما واعتنى بهما، واعتبرهما ابنين له. عاشا مع ابنيه مثل الإخوة. واشترى سلاحا للولدين، ودرّبهما إلى أن صارا شابين كاملين.

وفي أحد الأيام، كانا يلعبان مع شباب القرية. وأظهرا تفوقا عليهم. وفي خصام عابر عيره أحدهم :

ـ أيها الغريب ! الذي قذفه البحر ! أنت لا أب لك ! جرحته الكلمة، وأدهشه الاكتشاف فعاد إلى أمّه باكيا وسألها :

ـ من هم أهلي ؟! ومن هو أبي ومن هي أمّي ؟!

ـ أنا أمّك وأنت ابني !ـ

ـ لا ،لا. أريد أن أعرف والديّ الحقيقيين وإلا هربت من الدار ولن أعود إليكم ! فأخبرته بما وقع.

ـ يوم وجدك زوجي ولد لي هذا الابن، ويوم عثر على هذه الفتاة ولدت لي هذه البنت. ولا أدري من يكون والداكما بالضبط ؟!

ـ إذًا، هذه أختي ؟!

ـ دون شك، تكون أختك ! فالعلبتان متشابهتان تماما.

ـ اعذريني يا أمي، أنا راحل. يجب أن أعثر على والديّ. ولن أنسى فضلكما علينا.

امتطى جواده مع أخته وانطلق. قطع بلدانا وجبالا حتى وصل بلدة، وكانت تلك بلد أبيه. وهو لا يعلم. بنى قصرا، واستقر إلى حين.

انتشر خبره. سمع به السلطان، واستغرب وجود من ينافسه في المال فوق مملكته. وعزم على دعوته للغداء للتعرف عليه. اغتنم فرصة التقائهما في رحلة صيد، وقدّم له دعوته.

حضر مع أخته. جالسهما السلطان وانبهر بجمال الفتاة. وأراد الزواج منها، ولم يفاتح أخاها في ذلك منتظرا إتمام التعارف بينهما.

حضر الغداء. ورأت الفتاة تلك المرأة المقيّدة في الزريبة فأشفقت عليها، وصمّمت على أن لا تأكل شيئا حتى تشاركهم غداءهم. حاول السلطان أن ينسي الفتاة طلبها ولكنها ألحت فقال لها :

ـ دعي عنك تلك الوسخة، لا تشغلي بالك بها، فلا يليق بها أن تجالس أميرة مثلك !

ـ أنا أتكفّل بتنظيفها.

ولبى السلطان رغبتها. وكانت الفتاة تشعر بحنان بالغ تجاه تلك الغريبة.

تعرفت الضرتان على الفتاة، واشتدّ بهما الخوف، وارتعدت أوصالهما، وهاجت الغيرة القديمة لتلهب كيانيهما من جديد،

فاتصلتا بالقابلة وهدّدتاها بالموت إن لم تخلصهما من الشابين.

قصدت العجوز الفتاة في غياب أخيها. وقالت لها :

ـ يا للعجب ! كم هو جميل قصرك وواسع ! كيف تعيشين وحدك دون مؤنس ؟! ألا تقلقين وحدك ؟! ألا تخافين ؟!

ـ وجود أخي يملأ عليّ الدنيا.

ـ ولكن غيابه يغمر القصر بالفراغ الرهيب، ولا توجد امرأة في الدنيا ترفض المؤانسة. أرسلي أخاك ليأتيك بالطائر المغرّد! يشغل أوقاتك، ويريحك بغنائه الجميل، ويخلصك من هذا الفراغ المخيف.

ولما حضر أخوها، طلبت منه إحضار الطائر المغرّد. واحتار الشاب

ـ وأين أجد هذا الطائر ؟!

فبكت

ـ لو كنت تحبّني حقّا، ما عزّ عليك العثور عليه !

ـ لا تحزني يا أختي، ليس في هذه الدنيا ما يعزّ عليك.

وذهب باحثا عنه.

مشى، تقذفه أرض إلى أخرى حتى وصل إلى مكان وجد فيه شجرة وارفة الظلال فاستراح تحتها وسمع طائرا يغنّي :

ـ ما أخوف هذا اليوم! أين أبيت الليلة ؟! يا وحشة هذا اليوم ! مع من أبيت الليلة ؟!..

أجابه :

ـ أنا هنا معك هذه الليلة !

فتحوّل الشاب إلى صخرة. انتظرت الأخت عودة أخيها، ولا خبر عنه. طال انتظارها ولم يعد. فأخذت تبكي أخاها ليلا ونهارا. وزارتها العجوز

ـ عجبا ! أخوك ضاع، وأنت في هذا القصر فرحة بحالك ؟! اذهبي للبحث عنه. فانطلقت في طريق أخيها، تقفو أثره.

في الطريق، رأت غولة مقبلة من بعيد. وثدياها عاريان، حطتهما على كتفيها يتدليان. قبعت وراء دغل، وانتظرتها. وحين وصلت قربها، تسلّلت من مخبئها وراء الغولة، ودنت منها، ورضعت من ثديها. دهشت الغولة وصاحت فيها :

ـ آه..! لولا هذا النزر من الحليب الذي رضعته منّي لأكلتك وأهلك ! ماذا تريدين ؟!

ـ أرجوك ساعديني ! أخبريني أين أجد أخي ؟! خرج لإحضار الطائر المغرّد ولم يعد !

ـ استمري في هذا الاتجاه، ستجدي شجرة كبيرة عريقة، قرب الطريق معزولة. اجلسي تحتها وانتظري. سيقبل طائر جميل، يبحث عن مؤنس، ويقول : (يا خوفي هذه الليلة ! مع من أقضي ليلتي ؟! يا وحشة اليوم أين أجد مؤنسا ؟!)، فلا تتكلمي. راقبيه ولا تجيبيه، وعندما يقع في حضنك خذي آخر غصن طار منه، ورشي به ما تراه عيناك من حجر وشجر وستجدين أخاك.

فعلت الفتاة ما قالته الغولة. جلست تحت الشجرة وسمعت العصفور يغرّد، وينتقل من غصن إلى غصن باتجاهها :

ـ يا وحشة اليوم ! أين أبيت الليلة ؟! يا وحشة اليوم مع من أبيت الليلة ؟!

والفتاة جامدة لا تتحرك ولا تنبس بكلمة حتى وقع في حجرها كسرت آخر غصن وقف عليه ورشت ما حولها، فإذا بالحجر والشجر يتحوّل إلى عباد الله. هذا يركب حصانا، وهذا حمارا، وذاك راجلا.. ورأت أخاها فأسرعت إليه في شوق :

ـ آه، يا أخي خدعتني !

ـ أنت التي خدعتني !

عادا إلى قصرهما ومعهما الطائر الغرّيد.

استرجع العلاقة مع السلطان ففاتحه هذا في الزواج من أخته

فقبل. والضرتان لا تسعهما الدنيا من القلق والخوف، ولم تجدا وسيلة أخرى لمنع هذا الزواج أو الإيقاع بالشابين. أُقيم العرس. وفي ليلة الزفاف أخذت الفتاة معها الطائر الذي راح يغنّي على مسمع الحضور بما فيهم السلطان :

ـ يا ويلي ! يا ويلي ! الطائر الغرّيد، والشجر الفريد ! السلطان يتزوّج ابنته !

ـ عجبا ! عجبا ! الطائر الغرّيد والشجر الفريد ! السلطان يتزوج ابنته !

وظل الطائر يكرّر غناءه دون انقطاع.

تعجّب السلطان مما يسمع وساورته الشكوك. اتجه إلى زوجته في الزريبة :

ـ يا امرأة ! أتتعرّفين على ولديك إن رأيتهما ؟!

ـ إيه يا سيدي ! ليتني أراهما !.. فالابن ذو جبهة ذهبية، والبنت جانب من شعرها فضة وجانب آخر ذهب !

فكّ قيدها. وأحضر البنت قدامها. طلبت الأم منها أن تنزع منديلها ففعلت، عرفتها وعانقتها في حنان بالغ مرتجفة الأوصال وسألتها عن أخيها.

أحضر ابنها، حسر عن جبهته فعرفته وعانقته في شوق السنين الفائتة باكية.

وفرح الولدان بأمهما فرحا عظيما. واستولى الغيظ على قلب السلطان لمّا فهم ما وقع.

ـ ماذا أصنع بضرتيك ؟! و ماذا يشفي غليلك يا زوجتي ؟!

ـ أريد أن تربطهما إلى مؤخرة سرج الحصان وتجرّهما عبر المملكة حتى الممات جزاء صنيعهما، فقتلهما وجعل العرس حفلا لزوجته واجتمعت الأسرة في فرح لامثيل له.

تـذكّـر يـا حـمـام

أمـاشـهـو!

عن أمير سمع بغادة فائقة الجمال فشدّ رحاله وقصدها لما وصل منزلها رأته الفتاة، فأشفقت عليه وقالت له :

ـ آه.. يا هذا! أبي غول، لو رآك أكلك ! ارحل لتنجو برأسك !

ـ من أجل وجهك الفاتن، مستعد لمواجهة كل الأخطار.

واختفت في الدار. في اليوم الموالي عاد إلى مكانه، وأطلت الفتاة.

ـ أيّها الشاب الظريف ارحل عن المكان أبي غول إذا عثر عليك أكلك !

ـ لن أرحل إلا وأنت معي، ومن أجل جمالك أواجه كل الأخطار.

وعثر عليه أبوها وعرف قصده فجرّه إلى حقل مازال غابة وعرة وقال له :

ـ تحرث هذا الحقل وتعزقه اليوم، وتغرسه اليوم، وآكل التين من أشجاره اليوم وتركه.

جلس على الأرض يبكي خائفا فاقتربت منه الفتاة.

ـ لماذا تبكي ؟!
فقص عليها ما وقع.
ـ شه فيك !.. أوقعك رأيك وإصرارك !
ثم أدارت الخاتم في إصبعها فتحقّق ما طلبه أبوها.
عاد الأب، فوجد الأشجار في الحقل يانعة الفواكه فقال له
ـ أعلم أن هذا تحقق بفضل ابنتي ! تعالى.
جرّه إلى نخلة شاهقة العلو ملساء وطلب منه تسلقها، وأن لا يستعين بأية وسيلة.
ـ حين تصل إلى قمّتها، نادني لأنزلك منها.
حاول، وسقط بعد علو قصير فجمد حائرا، وجلس يندب حظّه.
أقبلت الفتاة وقالت له
ـ شه فيك..! رأيك هو السبب ! ومازلت لم تعرف شروط أمّي !
وقطعت من لحمه قطعا صنعت منها درجا للصعود والنزول.
وصل قمّة النخلة ونادى على الغول.
تعجّب من قدرته على الأمر.
جرّه الغول إلى الدار. ففي الغد سيخضع لطلبات أخرى، في الليل، وبعد نوم الجميع أيقظته الفتاة للفرار. استيقظت الأم مفزوعة ونبّهت زوجها لغياب ابنتها وطلبت منه ملاحقتهما جرى يتبع أثرهما.
حين اقترب منهما، لاحظت الفتاة تقلّب الجو فجأة، عصفت الرياح ودمدم الرعد، ونزل المطر
ـ هذا أبي قادم.
وتحوّلت إلى (ثالة)، وهو إلى قدح للشرب. وصل الأب إلى المكان، ولم يتفطن لهما. تعب من البحث، وعاد إلى زوجته :
ـ لم أعثر عليهما. وجدت في طريقي (ثالة) وقدحا.
ـ إنّهما ابنتك والشاب ! عد إليهما وأحضرهما.

رجع جاريا فوجد مسجدا ورجلا يصلي :
ـ يا مخلوق ! ألم يمر من هنا رجل وامرأة ؟!
ـ لا أدري، الظهر في وقته والعصر في وقته !
عاد ليخبر زوجته فزجرته :
ـ إنّهما ابنتك والشاب! عد للبحث عنهما.
ورجع يجري وراءهما فوجد حقلا من البطيخ وفلاحا
ـ ألم تر رجلا وامرأة ؟!
ـ الصغيرة بثمن، والكبيرة بثمن !
عاد إلى زوجته وأخبرها بما رآه فغضبت وقالت :
ـ ابق هنا، أنا التي ألاحقهما.
وانطلقت يملأها الغضب والرغبة في القصاص من الشاب. وتفطنت الفتاة لها.
ـ إنّها أمي، ولها القدرة على معرفتنا !
وحين اقتربت منهما تحوّلت إلى بحر وهو إلى سفينة، عرفتهما الأم فوقفت غاضبة ودعت عليهما :
ـ اذهبا فقد فرّقت طريقيكما، وحطّمت ما يجمعكما !
وعادت أدراجها. استمرا في السير، حتى وصلا بلاد الأمير.
ترك الفتاة في (ثالة) قائلا :
ـ أزور أهلي لأراهم وأحضّرهم لاستقبالك ثم أعود إليك. ابقي هنا.
ـ احذر أن تقبّلك عمتك على جبهتك !
استقبلته العائلة بشوق كبير. ومن فرحة لقاء الأهل لم ينتبه. وقبّلته عمّته على جبهته فنسي كل شيء.
انتظرت الفتاة وطال غيابه، ففهمت أنه نسيها واختفت قرب ثالة تفكّر في وضعها. أقبلت عجوز ترد الماء. تقدّمت منها ورفعت جرتها طالبة حملها لها فشكرتها العجوز. وفي الطريق طلبت البقاء معها، فهي غريبة عن القرية. استضافتها وتكفّلت

الفتاة بإنجاز أعمال البيت، وفرحت العجوز بها لإتقانها شغلها.
قرّر أهل الأمير أن يزوّجوه، وأعلن السلطان عن توزيع الثيران على من يرغب في رعيها إلى يوم العرس، وسيكرمهم السلطان بالدعوة إلى حضور الحفل. قالت الفتاة للعجوز

ـ اطلبي عجلا، وأنا أرعاه.

فأحضرته لها.

كبر العجل، ومع وصول وقت العرس أقبل الأمير لاسترداده. وقالت الفتاة للثور، وهي تخرجه من الزريبة :

ـ انهض يا ناكر الإحسان مثل صاحبه !

ولكن القول لم يثر في الشاب أيّ اهتمام، وفي ليلة العرس، كانت الفتاة والعجوز من المدعوين.

لّما اجتمع الأهل للعشاء، أدارت خاتمها، فوقفت حمامتان في نافذة الدار تتحاوران، على مسمع الشاب.

ـ أتذكر يا حمام ؟! أتذكر يوم جرى أبي وراءنا لافتراسنا، فتحوّلت إلى ثالة وأنت إلى قدح ؟ أتذكر ؟!

ـ أذكر ذلك نعم، أذكر ذلك !

ـ هل تذكر أيّها الحمام، يوم جرى أبي وراءنا، وكنتُ الجامع وأنت المصلي ؟!

ـ أذكر ذلك نعم، أذكر ذلك !

والشاب يستعيد ذاكرته بالتدريج.

ـ أتذكر أيّها الحمام ؟ـ أتذكر يوم جرى أبي وراءنا، وكنتُ البستان وأنت الفلاح ؟!

ـ نعم، أذكر ذلك، أذكر ذلك نعم.

ـ أتذكر أيّها الحمام ؟! أتذكر يوم جرت أمي وراءنا، فكنتُ البحر وأنت السفينة !

ـ نعم أذكر ذلك، نعم أذكر ذلك.

عندها، انتفض الشاب، واستعاد وعيه، وتذّكر كلّ شيء

وانتبه لحاله فبحث بشغف عن صاحبة الحمامين. وبرزت له وسط النساء كالبدر فجرى إليها معتذرا يطلب العفو منها، وأقام لها عرسا مشهودا.

الزهر المشتعل

أماشهو !

خرجت مجموعة من النساء يحتطبن، فوجدت إحداهن عصا مزيّنة مزركشة،أضافتها إلى حزمتها. وبعد مسافة قصيرة، ثقلت عليها الحزمة، فأنقصت منها. قالت لها رفيقاتها

ـ ارمي العصا، ارميها !

ورفضت. وازدادت الحزمة ثقلا فراحت ترمي الحطب عودا بعد آخر، إلا تلك العصا رفضت التخلص منها.

اقتربت من الدار، فسقطت العصا على الأرض وتحولت إلى مخلوق عجيب. وقال لها

ـ آخذك معي !

ـ لا يمكن.. يجب أن أرى والديّ.

ـ أنا ذاهب، وسأعود إليك في صورة حصان وسط الضباب.

وفي أحد الأيام، سمعوا صوت حصان أمام الدار، والضباب يملأ المكان. خرج الأب لطرده فلم يتحرك. وخرجت الأم، ولم يتحرك. فقالت ابنتهما :

ـ دعوه، لقد جاء من أجلي ! وخرجت إليه فطار بها.

في بيته تقضي النهار وحدها، فهو لا يحضر إلا ليلا، ويرفض الضوء في البيت. وقبل طلوع النهار ينسحب. فلم تتمكّن من رؤية وجهه.

استأذنته يوما في الذهاب إلى بيت أبيها وقبل. وطلب منها اصطحاب كبشه.

زارت والديها مع الكبش وفرحا بها وسألاها عن حالها فقالت :

ـ أنا في حال يسير، وخير وفير، ولكنّني لا أرى وجه زوجي. يدخل في الليل، ويخرج قبل طلوع الفجر ويرفض وجود الضوء في الدار.

ـ خذي معك سبعة مصابيح، وأشعلي واحدا كلّ ليلة بعد نومه، وسترينه دون أن يعلم.

حملتها ورجعت إلى دارها. وفي الطريق قال لها الكبش :

ـ ارمي هلاكي وهلاكك !

رمت مصباحا. وبعد مسافة أعاد طلبه :

ـ ارمي هلاكي وهلاكك !

رمت مصباحا. ولم يتوقف الكبش عن تحريضها على رمي المصابيح فرمتها إلى أن بقي معها واحد رفضت التخلي عنه مدعية رميها كلها.

عند اقتراب المغرب، وحان وقت دخول الرجل، وضعت المصباح مشتعلا في القدر وغطته.

بعد نومه، رفعت الغطاء فأبهرتها وسامته ولمعان وجهه، وظلت تحدّق فيه ساهية. فتصبّب العرق من وجهها على وجهه.

استيقظ وقفز صائحا :

ـ ويحك ! ماذا فعلت ؟!ـ لولا معاهدتك بالله لأكلتك وأهلك !

خرج ولم يعد منذ ذلك الحين لا ليلا ولا نهارا.

قرّرت اللحاق به وهي لا تدري كيف تصل إلى مكان وجوده فسألت الكبش

ـ أين ذهب سيّدك ؟!

أشاح الكبش برأسه قائلا في انفعال :

ـ لا أدري ! كنت أمرتك برمي المصابيح، وأخبرتك أنّك تحملين سبب هلاكي وهلاكك ولكنّك لم تفعلي وأخفيت الأمر عنّي، أنا لا أستطيع مساعدتك الآن !

ـ أرجوك أن تخبرني بطريق يوصلني إليه، أتوسل إليك أن تدلّني عليه !

وصمت الكبش كأنّه لا يسمع توسلاتها. وهي مازالت تلحّ في طلبها. فالتفت إليها

ـ طيب، طيب ! سأحاول أن أجمع بينكما وأعلم أن لقاءكما سيكون بقطع رأسي. ولكن لا بأس فلهذا وجدنا... إنّ مسلكه يسهل العثور عليه، حيث يمرّ تظهر آثاره.

طلبت منه مرافقتها واقتفت أثره ووجدت الطريق منورا وسألته :

ـ هل مرّ من هنا الزهر المشتعل ؟

ـ نعم، بهذا الاتجاه !

وعثرت على نخلة منورة بالزهر الجميل

ـ هل مرّ من هنا الزهر المشتعل ؟

ـ نعم. مرّ من هنا.

وجدت ثالة تلمع بالأنوار وسألتها فأخبرتها بمروره من هناك. واستمرت على نفس المنوال

حتى التقت به فقال لها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟!ـ أهلكت نفسك بتصميمك ! أمي غولة

ستأكلك !

رافقها إلى المنزل. وسعت أمّه لإيجاد عذر لأكلها. فصبّت على أرضية الدار ما في أهرائها

من القمح والعدس والشعير والفول وقالت لها مهددة :

ـ أدور حول الحارة سبع مرات، إذا وجدتك لم تنتهي من فرزها وفصل كل نوع عن الآخر أكلتك.

ورأت أن فصل الحبوب بعضها عن بعض ووضع كل نوع في هريه أمر مستحيل في تلك المدة القصيرة فجلست تبكي. ووجدها زوجها على تلك الحال :

ـ أنظر ما فعلت بي أمّك ؟!

ـ هذا من تدبيرك ! أهلكك إصرارك. اصعدي على تلك الربوة ونادي : اجتمع أيّها النمل، عصفور الجوّ يقيم عرسا.

ونادت كما قال لها فأقبل النمل على الدار بعدد مكثّف، كل فرقة توّلت نوعا من الحبوب. وفي لمح البصر تم جمعها كلّها في الأهراء.

دخلت الغولة وتفحّصت الأهراء ووجدت كل نوع في مكانه وقالت لها :

ـ أدور حول الحارة سبع مرات ثم آتي وألحس الأرضية بلساني وإذا وجدت ذرة غبار عليها، آكلك، ووجدها زوجها تبكي حائرة.

ـ انظر ما طلبته مني أمك !

ـ أهلكك إصرارك ! اذهبي إلى التل ونادي : فيضي يا بحور، عصفور الجوّ يقيم عرسا.

نفذت ما قال. وفي لحظة فاض البحر وغسل المكان. عادت الغولة ولم تجد غبارا على الأرض فقالت لها :

ـ أحضري لي ريش العصافير لملء مخدة. وإلا أكلتك.

ووجدها تبكي. فقال لها :

ـ اذهبي إلى تلك الربوة، ونادي : اجتمعي أيّتها الطيور، عصفور الجوّ مريض !

وفعلت ما قاله فأقبلت أسراب الطيور من كل صوب، وكلّ من مرّ ترك ريشه، فكانت الكومة عظيمة.

في اليوم التالي قالت لها :

ـ أعيدي الريش إلى أهله حالا !

انزوت تبكي، وقد رأت نهايتها قد وصلت. فقال لها زوجها :

ـ عودي إلى الربوة ونادي، اجتمعي أيّتها الطيور عصفور الجوّ شفي !

وفعلت ذلك. فجاءت الطيور كلّها. وكل طائر يمر يستعيد ريشه. حتى أخذت الطيور ريشها كلّه.

ولما اجتازت تلك التجارب، قالت الغولة لابنها :

ـ علينا أن نأكلها !

والزهر المشتعل غير راض، ففّكر في ربح الوقت ريثما يجد حلا للمشكلة وقال :

ـ وكيف نأكلها يا أمّي وهي هزيلة ؟! نضعها في هري التين، ولمّا يتحسّن حالها نأكلها.

أدخلها في الهري وأعطاها قعسريا وأمرها بأن تمدّه لأمّه عندما تطلب ذراعها.

بعد بضعة أيام أقبلت عليها. وصاحت بها :

ـ أرني ذراعك !

فمدت القعسري.

ـ إنّها يابسة يا ولدي.. يابسة !

ـ نضعها في هري الزبيب !

أدخلها فيه وأعطاها (ذيل نعجة) لتريه لأمه. بعد بضعة أيام أتتها

ـ هات ذراعك، لنعلم إن حان وقت أكلك ! ولمست الصوف.

ـ إنّها سمينة يا ولدي.. سمينة وكاملة !

فقال لها :

ـ اجمعي أخواتك كلّهن، وستجدينني ذبحتها وهيأتها للعشاء.

خرجت لجمع أخواتها وقام هو بذبح الكبش وتحضيره. هيئت قصاع الكسكسي بعددهن وقصعة لنفسه. وبعد دخولهن عانق أمه وقبل جبينها بحنان فقالت :

ـ مابالك ياولدي ؟ أرى شفتيك ترتجفان، أتخفي عني أمرا ما ؟

ـ أنت عزيزة على قلبي ياأمي، ولايشغلني شيء، أنا مسرور من أجلك، وأرجو أن يكون الطعام قد أعجبك. فلا تخلفن شيئا في القصاع. سألتحق بكن بعد قليل.

ذهب مسرعا إلى حيث أخفى زوجته بعيدا عن الدار فأخذها من يدها واتجه إلى الربوة وهو ينادي :

ـ اجتمعي يانسور عصفور الجو مهموم.

فأقبلت عليهما مجموعة نسور ضخمة حطت بقربه وقالت :

ـ أمرك سيدنا.

ـ أريد الذهاب إلى مروج المياه العذبة، وليكن هذا سرا بيننا لايطلع عليه أحد حتى أمي.

فدنا منه نسران قويان، وقال لزوجته :

ـ اركبي نسرا وسنذهب إلى بلد حيث لاتجدنا أمي، نعيش فيه حتى يزول غضبها وتشتاق إلي.

وامتطى هو نسرا آخر وانطلقا يسبحان في الجو.

لـونـجـا

أمـاشـهـو !

عن ابن السلطان، ولا سلطان إلا الله. كان يعيش في مقصورة معزولا منذ صباه. يشرف أبوه على إطعامه بنفسه. وكبر الولد معجبا بنفسه أيما إعجاب.

وكان أخ الملك يبحث عن وسيلة تخلصه من هذا الابن الوريث الشرعي للعرش. وبمساعدة أحد أعوانه الماكرين دبر مكيدة لتحقيق أمنيته، وبقي يتحين الفرصة لتطبيقها.

غاب السلطان يوما، فأمر أخوه خادمة من خدمه أن تتصل بالأمير، ووعدها إن هي نفذت مايطلبه منها بمكافأة عظيمة، ولقنها ماتقوله له.

ولما حان وقت الطعام، وزعت زوجة السلطان اللحم على الأطباق. فألحت الخادمة على حمل طعام الأمير قائلة :

ـ أرجوك سيدتي أن تشرفيني بإطعام الأمير، فنفسي تواقة إلى رؤية طلعته البهية.

دخلت على الأمير منحنية الرأس، وضعت الطعام على المائدة، ثم وقفت منبهرة تحملق فيه فصاح فيها :

ـ مابك أيتها الجارية؟! انصرفي.

ـ سبحان الخالق! أنت أكمل الرجال ياسيدي !ـ ولم أر أوسم منك، ولاأعدل قدا مثلك، ولا يفضلك في الجمال والكمال والاعتدال إلا لونجا!

صاح الأمير فيها غاضبا وهو يتقدم نحوها :

ـ أيّتها الأمة النجسة ! كيف تجرئين على رفع عينيك إليّ وذكر أوصافي ؟!

وصفعها فقالت مرتعدة :

ـ اغفر لي يا سيدي ! واعذرني على وقاحتي، لم أستطع إخفاء إعجابي بحسنك !

وتحرّكت كأنّها تريد الهروب، فأمرها بالوقوف وقال :

ـ من تعنين بـ « لونجا » ؟! تكلّمي !

ـ عفوا يا سيّدي، لم أقصد شيئا.. أرجوك اصفح عنّي !

ـ لن تفلتي مني حتى تخبريني عن جنس هذا المخلوق. وهل هو حيّ أم ميّت ؟! أفي مملكتي أم في مملكة غيري ؟!

ـ أتوسل إليك يا سيّدي أن تعفيني من الحديث عنها ! فنادى الأمير على الحارس ليقيّدها ثم قال لها :

ـ إمّاتخبريني عنها، وإمّا أقذف بك في جب عميق !

ـ لا تفعل يا سيّدي أنا أخبرك بكل شيء. لونجا يا سيدي غادة لا مثيل لها، رائعة الجمال، كاملة العقل والجسم، ذكيّة، ذات اعتدال في القد يأسر القلوب، نظراتها تريح النفس وتلهب العواطف، ولكنها ابنة غولة مفترسة. تعيش معزولة في غابة، ولا يستطيع الاقتراب منها إلا الفارس الشجاع القوي، واستمرّت في ذكر محاسنها. ولم يطلق سراحها حتى دلته على مكان وجودها.

اشتعلت نار الشوق في قلبه، وعظمت في نفسه الرغبة للقاء هذه المرأة التي تفوقه في الجمال. أسرج حصانه، وانطلق إلى المكان

ولم يعبأ بتحذيرات أمّه، ووصل إليه وكأنّه يتنزّه.

رأته الفتاة فقالت له :

ـ آه يا هذا الشاب ! أنت لا تستأهل الموت، أمّي غولة، إذا عثرت عليك تأكلك وأهلك.

ـ من أجل وجهك يا لونجا أضحي بروحي.

أدخلته الدار وحدّثته، وحين أحسّت باقتراب أمّها أدخلته في بؤرة الزيتون وغطّته بقصعة. دخلت أمّها البيت وصاحت :

ـ همم ! أ لونجا هذه الرائحة جديدة ! لم تكن في الدار أبدا ؟!

ـ لا شيء يا أمّي، إنّها رائحة عصفور. وقف بالباب فقتلته وشويته وأكلته

ـ لماذا لم تتركي لي نصيبي ؟!

ـ أوه يا أمّي ! وكم أترك لك من عصفور صغير ؟!

وحين حضر العشاء، طلبت من لونجا مناداة آنية البيت كلّها بالتناوب لتخضبها بالحناء. نادتها كلّها إلا الهاون، فقد نسيته والقصعة بقيت مكانها بوصية منها؛ إذا نادتها أمّها لا تستجيب فقالت الغولة :

ـ لماذا لم تأت القصعة ؟!

ـ لا تشغلي بالك بها يا أمّي، خاصمتها اليوم وضربتها فغضبت، أنا التي أحمل إليها الحناء.

في الليل، أيقظت لونجا الشاب للفرار. بصقت على المخدة وعلى الفراش وبجانبي الفراش، عند الباب، وعند عمود الدار ورحلا.

وبعد خروجهما انطلق صوت الهاون يدوي في البيت :

ـ رن يا هاون رن، لونجا خطفها رجل.. دق يا هاون دق، لونجا خطفها رجل !

وكرّر الصياح فاستيقظت أمّها ونادت :

ـ لونجا !

ـ نعم يا أمي أنا هنا !
رد عليها بصاق الوسادة. فصاحت في الهاون
ـ اسكت يا هاون ودعني أنام.
غاصت في النوم وعاد الهاون إلى الرنين.
ـ دق يا هاون دق، لونجا أخذها رجل !
فنادت :
ـ لونجا !
ـ نعم يا أمي، أنا هنا !
وصاحت في الهاون ليكفّ عن إثارة الضجيج. وبعد فترة عاد إلى الصياح فنادت :
ـ لونجا !
ـ نعم يا أمّي !
رد عليها صوت من جانب الفراش فأمرت الهاون بالسكوت. ثم استأنف الصياح وهي تنادي ويرد عليها البصاق بالتناوب.
ـ لونجا !
ـ ...
ـ لونجا !
انقطع الصوت ولم يرد عليها أحد. انتفضت، تحسست الفراش فوجدته خاويا. بحثت عنها في الدار، وحولها فلم تجدها. اقتفت أثرها مرفوقة بكلبتها. لونجا مع الشاب يحثّان الخطى.
شعرت الفتاة باقتراب أمّها فطلبت منه الإسراع قبل أن تلحق بهما. وصلا إلى نهر متلاطم. وقفت لونجا على حافته وترجّته :
ـ أيّها النهر الجميل، يا نهر السمن والعسل افسح لي الطريق. أمّي غولة إذا لحقت بي أكلتني..
فانخفض النهر، وكلما أعادت مدحها له ينخفض أكثر حتى بلغ مستوى يمكن لهما اجتيازه بسهولة. وبعد أن قطعاه عاد النهر إلى

عنفوانه. وهما على الشط الآخر، وصلت أمّها. ورأت النهر يزبد، وعلى علو لا يمكن لها اجتيازه فقالت لابنتها :

ـ يا ابنتي، كيف قطعت النهر ؟! ماذا قلت له ؟!

ـ قلت له، أيّها النهر النتن، يا نهر الدرن والوسخ، دعني أمر فانخفض.

أعادت القول بنغمة مهدّدة فاهتاج وأزبد بشدّة مرعبة، وارتفعت المياه، حتى كاد يفيض على الدرب ويجرفها فأمرت الكلبة :

ـ اشربي يا كلبتي، اشربي !

ونفذت الأمر، ولم تتوقّف حتى انفجر بطنها.

أدركت الأمّ أن ابنتها قد فلتت منها فدعت عليها

ـ اذهبي، لقد فرقتُ شملكما، وحطّمت ما يجمعكما !

استمرا في طريقهما حتى وصلا إلى (ثالة) وكانت خاصة بالنسور، اغتسل الشاب وشرب فرفعه نسر وعلا به فقال لها :

ـ استمري، ستجدين (ثالة) أبي اغتسلي واشربي. وستأتي خادمة انتزعي جلدها والبسيه واذهبي إلى القصر.

ـ آه، لقد غدرت بي !

ـ افعلي ما قلته لك ولا تخافي.

تقدّمت مسافة ووجدت ثالة كما قال لها. اغتسلت وشربت وانتظرت الخادمة، وفعلت ما قاله لها.

قصدت القصر ولما وصلت، وهي لا تعرف نظام الدار

ـ أين أضع القربة يا لالة ؟!

ـ إيه.. إيه. وكأنّك تجهلين مكانها !

ـ لقد نسيت يا سيدتي.

فأشارت إلى مكان وضعها، ثم عرفت غرفتها فالتحقت بها. في الليل أتاها النسر الحامل للشاب. وراح يحدثها وهي تلومه وتقول له إنك غدرت بي. فقال لها :

ـ قولي لأبي يذبح ثورا، ويقيم زردة للطيور. ستحضر النسور كلها. وأنا أكون مع النسر الأخير يضرب النسر على كتفيه فأسقط أنا..

ولكنها لم تخبر أباه.

وفي كلّ ليلة يكرّر الطلب. ولم تجرؤ على مفاتحة أبيه في القضية، حتى سمعها جار لهم. وأخبر أباه.

ـ إن بيتك مسكون ! أسمع صوتا فوق الدار وصوتا يجيبه من الداخل !

وشرع الأب يراقب من مكان منزو ليتأكد من قول جاره، وسمعهما يتحدثان.

أسرع الأب إلى تنفيذ ما طلب الشاب، وأقبلت النسور أسرابا.

انتظر حضور آخر نسر، و ضربه على كتفيه فسقط ابنه هزيلا ضعيفا منهكا. عالجه واعتنى به حتّى استرجع قواه.

لما شفي وعادت إليه لياقته طلب من أبيه تزويجه بالأمة السوداء.

ـ أنا أتزوّج بهذه الأمة !

تعجّب الأب من طلب ابنه وزجره :

ـ هل أنت مجنون ؟! كيف تتزوج أمة سوداء ! وأنت سيد القوم ؟!

وأمام إصراره رضخ أبوه لطلبه. في ليلة الزفاف، نزعت جلدها.

ولما دخلت الخادمة تحمل فطورهما، أبهرها منظرهما. ووقع الصحن من يدها، وجرت إلى سيدتها قائلة بصوت مضطرب مشحون بالفرح :

ـ يا لالة ! سيدي هلال وسيدتي قمر!

فأرسلت خادمة أخرى، ووقع لها ما وقع للأولى، ورجعت وهي تصيح مثلها. وأرسلت أخرى ليقع الشيء نفسه فذهبت بنفسها لترى ما سرّها وأدخل البهجة إلى قلبها.

سانطا

أماشهو !

عن سلطان، ولا سلطان إلا الله. كان له ابن يعزّه كثيرا. وخصّص له غرفة في قصره، يعيش فيها معزولا. وكانت والدته الوحيدة التي تحمل له طعامه، وتحرس على أن تعطيه الهبر من اللحم. وحدث أن غابت أمه يوما.

فحملت الأمة له طعامه، وكان لحما ذا عظم، وهو الذي لم ير ذلك النوع من اللحم من قبل. أمسك القطعة في استغراب وقال دهشا :

ـ ما هذا ؟!

ـ لو تعلم يا سيدي كم هو لذيذ! خاصة إذا ضربت به الحائط !

فضرب به الحائط فانكسر الزجاج، ووقف ينظر حين سمع لغطا وصياحا في الخارج،

اندهش من المنظر العجيب الذي انفتح أمامه وهو يرى الشباب يلعبون فأطلق صيحة تعجب وحسرة :

ـ وا أماه ! وأنا المسجون في البيت !

حاول الخروج فمنعوه عنه. ووصلت أمه وحاولت أن تغيّر قراره،

وهي تحذره من عقاب أبيه لها ولكنه أصر على طلبه. وطلب إحضار حصان فورا. ولم تجد الأم بدّا من تنفيذ رغبته.

امتطى حصانه، والتحق بالفتيان. وكانوا يلعبون بـ (قطعة الفلين).

وبينهم ابن أرملة، كان مسيطرا على اللعب، وباستمرار ينتزع منهم قطعة الفلين. وفي ذلك اليوم انتصر عليه ابن السلطان، وانتزعها منه.

رجع ابن الأرملة إلى أمه باكيا شاكيا. استقبلته حائرة.

ـ ما بك يا بني ؟!

ـ أهانني ابن السلطان اليوم، انتزع مني الكرة، وسخر مني رفاقي.

ـ لا تشغل بالك به، أنا أتكفل بأمره. سأنفيه من البلاد.

وحين انشغل الفتيان باللعب، اتجهت العجوز إلى (ثالة)، حاملة معها قلة كبيرة وغطاء حبة البلوط لملء القلة به.

حضر ابن السلطان ليشرّب حصانه فوجدها في (ثالة)

ـ ابتعدي يا أمي العجوز ليشرب حصاني.

ـ لما أنهي ملء قلّتي أترك لك المكان.

عاد ابن السلطان إلى اللعب. ولما تعب حصانه رجع إلى (ثالة)، والعجوز ماتزال في مكانها.

ـ ابتعدي يا أمي العجوز ليشرب حصاني !

ـ بعد أن تمتلئ قلّتي.

رجع إلى اللعب، واشتد العطش بالحصان فعاد والعجوز في مكانها، وأجابته بنفس الجواب.

عند ذلك دفع حصانه فألقاها على ساقية ثالة وصاحت العجوز

ـ أبا.. با.. وكأنك تزوّجت سانطا !

صدمه قول العجوز، ورجع إلى الدار مريضا محموما يرتعد

فصاحت أمه فزعا :

ـ آه يا بني، سيقتلني أبوك ! سيقتلني لا محالة !

ـ دثّريني يا أمي دثّريني، فالحمى تعصف بجسمي !

ـ يا ويحي ! ماذا وقع لك ؟!

ـ الأرملة الفلانية، هي التي دعت عليّ لأنّني دفعتها بحصاني وأسقطها أرضا. ولن أشفى إلا على يدها ! فاستدعتها أمّه في الحين فحضرت مسرعة.

لما وصلت إليه قالت له :

ـ ماذا يريد مني سيدي ابن السلطان العزيز ؟

ـ أصابتني حمّى، ولن أشفى إلا بأكل ما تحضرينه بيديك النقيتين فطعام نساء أهل بيتنا غير نظيف !

ـ بفرح وسرور يا سيدي الأمير. وماذا اشتهت نفسك ؟

ـ عصيدة بيدك تكفي.

شرعت العجوز في الطهي. ولما غلت العصيدة في القدر فوق النار قذف ببعرة غنم فيها وقال

ـ أوه ! انتبهي أيتها العجوز ! يبدو أنكن على طراز واحد وكلّكن لا تعتنين بالنظافة،

أنظري! عصيدتك اتّسخت !

ـ عفوا يا سيدي، عفوا ! لم أر ذلك !

فأخذت ملعقة لإخراج البعرة، وصاح

ـ لا، لا. احذري ! لا تفعلي ذلك ! ستفتّتها الملعقة ! انتزعيها بإصبعيك، في خفّة وسرعة.

قرّبت العجوز كفّها من القدر، ومدّدت إصبعيها فأمسك الشاب يدها وغطسها في العصيدة وهي تصرخ :

ـ أطلق يدي يا سيدي،كفّي تحترق!

وقال بحدّة :

ـ لن أطلقها حتى تخبريني أين أجد سانطا !

ـ أعاهدك يا سيدي على أن أخبرك، دع يدي لقد احترقت.
أطلق يدها.
ـ سانطا ابنة غول ! وستجدها في مكان بعيد عنّا. والعلامة هي أن تجد دارا لا يذوب عنها الثلج.
وهذه الدار الباردة على الدوام، في حقيقتها يستعملها الغول سجنا لكل من قصد ابنته.
شدّ الفتى رحاله قاصدا المكان البعيد ومعه عبد له. أتته العجوز وقالت له بحضور أمّه
ـ يا بني، احذر نفسك من الأخطار، ستجد في طريقك صراعا بين النحل فلا تنهيه وصراع بين الثعابين فلا تنهيه، وصراع بين الغولات فلا تنهيه، وصراع بين النسور لا تنهيه.
وانطلق الشاب. ووجد ثعبانين يتصارعان ففكّهما. نزع كل منهما قطعة من جلده وقالا له
ـ إذا احتجت إلينا ضع الجلد في النار نحضر إليك.
ووجد نحلتين تتصارعان ففكّهما، فاقتطعت كل منهما جزءا من جناحها وسلمته له. ووجد غولتين تتشاجران ففكّهما، فأعطته كل منهما خُصلة صغيرة من الشعر. ووجد نسرين يتشاجران ففكّهما، فأعطاه كل منهما ريشة من جناحيه. ونصحوه جميعا أن يحرق ما أعطوه إن احتاج إلى مساعدة.
اقترب من دار الغول فأمسك به، وشرح له الشاب غرضه فقهقه الغول وهو يجرّه قائلا :
ـ إذا بقيت حيّا !
ووضعه في الدار الباردة.
في الليل، اشتد عليه البرد، وشعر بأعضائه تتجمّد بسرعة. فأرسل الخادم إلى الغول قائلا له
ـ قل له : أعطني جمرة سيدي مريض.
ففرح الغول باقتراب أجله لأكله، وأعطاه الجمرة.

وضع ريش أحد النسور على الجمرة فجاء النسر ودثّرهما بجناحيه حتى الصباح. أطلّ عليه الغول فوجده حيّا.

أغلق عليه الباب.

في الليلة الثانية، أرسل الخادم ليطلب جمرة فجاء بها. وضع ريش النسر الثاني فحضر، ودفّأهما حتّى الصباح.

أطل عليه الغول فطلب الشاب منه الوفاء بوعده ويزوجه الفتاة.

ـ مازال أمامك امتحان آخر. عليك أن تصعد على النخلة بقصعة زيت، وتنزل بها وإذا فاضت منها قطرة واحدة أكلتك.

احتار في أمره. كيف يرفع القصعة ويصعد الشجرة وينزل بها دون أن تفيض منها الزيت ؟!

طلب جمرة ليسخن يديه. جيء له بالجمرة، ووضع شعر الغولتين فحضرتا :

ـ ماذا تريد ؟!

قص عليهما مشكلته.

ـ من السهل أن نُثبّت القصعة فوق رأسك وأنت تصعد، ولكنّنا لن نتمكن من منع الزيت عن السقوط.

فوضع جلد الحيتين في الجمرة فحضرتا. وطلب منهما منع الزيت من السقوط.

أحضرت القصعة مملوءة بالزيت. فالتفّ الثعبانان حول فم القصعة، رأس أحدهما وراء ذيل الآخر. وساعدته الغولتان على الصعود مع إمساك القصعة.

وأبو الفتاة قد جمع أخواته وإخوانه والتفّوا بالشجرة استعدادا لأكله. وهو متأكد من انصباب الزيت.

وكلّما أشرف الزيت على السقوط لحسته الحيّتان. ومع التعب، قطر العرق من وجهه على إحدى الغولات. فصاحت :

ـ همم أنزل نأكلك، لقد قطر الزيت !

فقالت أختها :

ـ لا تخيفيه، ذوقي السائل، إن كان مالحا فليس زيتا، فهو عرق ! وإن كان زيتا، ينزل بهدوء.

ـ إنّه مالح !

ـ أرأيت ؟ إنّه عرق، فلماذا تفزعينه ؟!

أنزل القصعة دون أن يسيل الزيت فوافق الأب على أن يعطيه ابنته على مضض.

جاء وقت الرحيل. فأخرج الغول حصان الشاب وسط أحصنة كثيرة متشابهة. وأكد عليه أن يعرف حصانه وإلا لن يرحل. وحصانه ذو قوة عجيبة، إذا انطلق يصدر عن قائمتيه الأماميتين برق وعن الخلفيتين ريح. ولكنّه لم يستطع تمييزه بين الخيول فاشتدت حيرته. بحث عنه، لف ودار دون جدوى، ولجأ إلى حرق جناح النحلة فحضرت.

ـ ماذا تريد ؟!

ـ أخرجي لي فرسي بين هذه الخيول.

حامت النحلة حول الأحصنة هنيهة وعرفت الحصان المقصود فلدغته، فانتفض. فقال الشاب :

ـ هذا هو حصاني!

انطلق الأمير بالفتاة عائدا إلى دياره، ورافقهما والدها. أقاموا العرس.

وعندما حان وقت رحيل الوالد طلب من صهره حصانه ليعود به.

ـ لا يمكن ! حصاني لا يركبه أحد غيري.

وصاح من حوله الناس ساخرين منه :

ـ آحوه.. آحوه !.. الحصان أفضل من الحم !ـ عجبا.. عجبا !.. الحصان أفضل من الحم !

فخجل الشاب، ووافق على طلب حميه، أخذ حصانه، ومرّ تحت

نافذة ابنته وناداها فأطلت

ـ نعم يا أبي !

ـ أطلي عليّ لأقول لك كلمة، لقد أوصتني أمّك، وأرسلتني إليك !

فأخرجت رأسها. وطلب منها الدنو :

ـ أخرجي رأسك أكثر لأتحدث معك.

دنت منه فأمسكها من رقبتها وجذبها إليه. حاولت الانفلات منه ولم تستطع. فتشبثت بنافذة الغرفة ومدت يدها الأخرى إلى خادمة كانت بقربها قائلة :

ـ انزعي الخاتم من إصبعي وأعطيه لزوجي. وقولي له :«إذا أدرته على اليمين يحضر ما تريد، وإن أدرته على الشمال يختفي ما أحضرته».

ومع انتزاع الخاتم سحبها أبوها من الدار، ووضعها على الحصان وهي تترجاه أن لا يأخذها. ولكن الأب انطلق بالحصان كالبرق.

لما دخل زوجها البيت، وجد الخادمات ينحن باكيات وقدمت له إحداهن بالخاتم وشرحت له ما وقع. ظلّ الزوج حائرا في أمره حزينا، ضاقت عليه الدنيا بقلقه وغضبه. ثم قرّر استرجاعها بأي ثمن، وخرج ماشيا وباله مشغول بزوجته قاصدا دار أبيها فلم يجد غير الأطلال. استولى عليه القنوط، وجلس على صخرة يندب حظه ودموع الحسرة تسيل على خديه، والحنق يلهب إحساسه، وهو لا يدري أين يجدها ؟! وتذكر الخاتم، فوقف وأداره على اليمين طالبا حصانا حاذقا فأقبل عليه في شكل بديع لم ير مثله، اقترب منه ومسح على رقبته، وامتطاه.

ـ احملني إلى مكان وجود سانطا.

فعدا به كالبرق حتى وصل قرية، ثم طلب من الحصان السير به إلى مكان آمن، حيث يطلع على حال سانطا ومنزلها. فمشى الحصان بتؤدة حتى وقف أمام باب دار قديمة. أدار الخاتم جهة

اليسار فاختفى الحصان. وأداره ثانية على اليمين ليغيّر ثيابه بثياب قديمة مترهلة.

دق الباب، فخرجت إليه عجوز، قال لها :

ـ أتضيّفين عابر سبيل يا أمّي العجوز ؟!

بهتت المرأة ولم تستوعب كلامه وبقيت تبحلق فيه.

ـ أتقبلين ضيف الله عندك هذه الليلة ؟

ـ لا أملك في الدار ما أقدّمه للضيوف يا بني ! أنا أعيش بالصدقة

ـ لا تشغلي بالك بالأكل، فأنا أتكفل به.

رحبت به وقد تعودت العجوز أن تتناول ما يحمله إليها خدم السلطان. في هذا اليوم أدار الشاب الخاتم فمدّت أمامهما مائدة تغص بأصناف المآكل. وحين حضر خدم السلطان بالأكل رفضت أخذه وطردتهم.

ـ أيّتها العجوز الشمطاء ! أشبعت من الأكل لترفضي عشاء السلطان ؟!

وكرّرت عليهم رفضها فعادوا به. وجلست العجوز إلى ضيفها تحدثه، فعلم أن حماه يعيش في القرية ويستعد للاحتفال بخطبة ابنته سانطا للسلطان وسيقيم هذه الليلة حفلا كبيرا.

وسألها عن حالها هي فقالت :

ـ إنها حزينة حزنا شديدا، ويظهر عليها المرض، وسمعنا أنها رفضت الزواج، وأنها قد تنتحر إذا نفذ أبوها قراره لأنها مازالت متزوجة أصلا !

استعدت العجوز لحضور الحفل، وطلبت منه مرافقتها فرفض مظهرا الفزع من الاختلاط بالقوم :

ـ لا أستطيع. أنا خائف ! أرجوك سدّي منافذ الدار كلها، وشقوقه، لكي لا يدخل عليّ شيء في غيابك.

نفذت العجوز طلبه. بعد خروجها أدار الخاتم، فحضر حصان قوي

ركبه متّجها إلى مجمع المدعوين، وأثار في المكان هلعا كبيرا : كسّر الأواني وداس على الحاضرين وحين يصل إلى العجوز يتراجع فقتل عددا، وجرح عددا آخر.

عادت العجوز مفزوعة وقصت عليه ما حدث.

ـ آه يا بني. لو تعلم ما حدث ؟! أحسنت صنعا ببقائك في البيت. لقد وقع عليهم فارس خرّب لهم الحفل. قتل من قتل وكسر ما كسر ! هذه الفتاة منحوسة ! الأوّل لم يتزوّجها إلا بعد أن مرّ بامتحان عسير أشرف خلاله على الموت. وهذا الأمير أراد الزواج بها فإذا بفارس مجهول يهاجم الجميع ويفسد الحفل.

قال لها :

ـ وأنت ؟ ألم يؤذك ؟

ـ لا يا بني أنا لم يؤذني.

في اليوم الموالي أعيد الحفل. وعاد الفارس إلى ما فعله في اليوم الذي قبله، فاستنجد أبو سانطا بالسلطان. فنشر العساكر في كل أرجاء القرية للإمساك بهذا الفارس. وأجل الحفل حتى يقبض عليه.

بقي الشاب مع العجوز يفّكر في طريقة أخرى، وطلب منها أن تتصل بسانطا، وتقول لها (معي رجل إذا مخض الحليب يحوله كلّه إلى سمن، ويحقق لك اللبن ما نويت بشربه).

ولما أخبرتها العجوز بما قاله لها. نظرت إليها بعينين حمراوين ذابلتين وسألتها

ـ أيحقق كل ما أتمنى ؟! ولو أردت الموت ؟!

ـ نعم يا سيدتي، سيحقق لك أمنياتك التي تكون خيرا إن شاء الله.

فطلبت منها إحضاره إليها في غياب أبيها. فأحضرته بعد خروج الغول، أخذ القربة يمخض ويغني ورأسه مغطى :

ـ أيا أيام الامتحان العسير العسير، شلقط.. شلقط !

ـ أيوم الامتحان العسير العسير.. شلقط.. شلقط..
يمخض ويغني فتذكرته وبكت فقال لها
ـ لماذا تبكين أيتها الجميلة ؟!
قالت :
ـ آه لو تعلم ! حضر رجل إليّ لم يأخذني معه حتى كاد يفترسه أبي ثم فرّقنا.
ـ لو تلتقين به هل تعودين معه ؟
ـ ليتني أراه ! وأنا لن أكون لغيره أبدا إنه زوجي.
فقال :
ـ أنا هو ذلك الرجل!
ورفع رأس برنوسه عن رأسه فعرفته وعانقته في شوق وقالت :
ـ غطّ رأسك وعد إليّ يوم يكون أبي هنا. وسأقول له : «إن لبنك يشفيني من قلقي، ويريح فؤادي. وقد أرض بهذا الزواج».
عندما تمخض اللبن تصبّه عليه. أنا أضربك، وأنت تدعو عليّ.
ويوم كان أبوها في البيت نائما في ركن رافقته العجوز إلى داره وشرع يمخض، ثم أفرغ محتوى القربة عليه فانتفض غاضبا :
ـ أيّها التعس ! ماذا فعلت ؟!
فشرعت سانطا تضربه، وهو يصيح
ـ وكلت إلى الله سانطا.. وكلت إلى الله سانطا!
فسقطت على الأرض فاقدة الوعي وفرّ هو من الدار. حاولوا معالجتها فلم يتمكنوا. ونطقت بصوت غريب ظنوا أن الجن سكنها وتحدّث بلسانها :
ـ لكي تشفى، عليكم إحضار ذلك المسكين، الذي ضربته، وتعطوه حصان أبيها، ليطوف بها سبع مرات حول الجامع.
فأحضروه وأركبوه الحصان الذي هو حصانه أصلا وأردفوا سانطا

معه وهو يصيح

ـ أمسكوني! لا أستطيع، سأسقط، سأسقط.

ويعيد الطلب. ولما طاف مرتين، قال :

ـ اتركوني الآن. لقد تعوّدت، وأستطيع إتمام الطواف وحدي.

اعتدل في جلسته على الفرس. طاف مرة أخرى ثم طار بالفتاة، وصاح الناس

ـ خطيبة السلطان سرقها رجل !

ـ خطيبة السلطان أخذها رجل !

يصيحون ويردّدون القول فقال أبو الفتاة :

ـ دعوه، إنّه الرجل الأول.. لا تتعبوا أنفسكم..

ـ لقد أخذها زوجها.

امقيذ ش

أماشهو !

عن رجل له سبع نساء. وحبلن كلّهن في وقت واحد. وكلّما ذهب إلى السوق حمل إليهن فاكهة.

مرة حمل سبع تفاحات. وفي الطريق عطش، فأكل نصف واحدة. وحتى لا يضطر إلى تقديم الناقصة لواحدة منهن بيده، رماها من طاق(نافذة) الدار، وأخذت كل واحدة حبّة، وكان النصف من نصيب المتأخرة.

ثم حمل سبع إجاصات، وفي الطريق أكل نصف واحدة. فرماها من الطاق. وكان النصف من نصيب التي أكلت نصف التفاحة. واشترى سبع بطيخات. وفي الطريق أكل نصف واحدة. وكان النصف من نصيب الزوجة نفسها.

وحين وضعن حملهن، ولدت تلك الزوجة نصف إنسان، سمّوه (امقيذش). وصارت المرأة موضع السخرية بين الزوجات.

وعاش «امقيذش» حياة قاسية معزولا عن الأسرة، يتقاذفه الاستهزاء والاحتقار بين إخوانه. فنشأ معتمدا على نفسه مقوّيا لقدراته الذاتية منفصلا عنهم في رأيه ونظرته.

كبر الأولاد، وبلغوا سن التدريب على القتال. اشترى أبوهم الخيول والأسلحة. و بقى توزيعها عليهم. وكان امقيذش يعلم أنه لن ينال بين إخوانه السلاح الجيّد والحصان المتين. فعمد ليلا إلى مخبأ السلاح واختار أفضل بندقية، نزع منها مسمارا وعفرها بالغبار. وذهب إلى الزريبة، واختار أجود حصان ووضع مسمارا في حافره.

حين حضر التوزيع قال إخوانه :

ـ البندقية المهلهلة يأخذها امقيذش، وكذلك الحصان الأعرج.

انتهى التوزيع. أعاد المسمار إلى البندقية ومسحها ونزع المسمار من حافر الحصان. وبذلك حصل على أجود ما اشتراه أبوه دون أن يتفطّن إخوانه.

شرع أبوهم في تدريبهم، فأظهر امقيذش براعة وذكاء في التدريب، وتفوّق عليهم جميعا.

فغار منه إخوانه أشدّ الغيرة، ولم يجدوا وسيلة للتخلص منه.

في أحد الأيام، قصدوا غابة للصيد. وتوغّلوا فيها ووجدوا دارا معزولة خرجت منها امرأة مرحبة بهم :

ـ أهلا بأبناء أختي ! مرحبا بكم في داري.

أدخلتهم الدار، ووجدوا عندها سبع بنات. طفقت المرأة تسلّيهم، حتى جثم الليل. أخذت أحصنتهم لربطها. وأبى امقيذش أن تأخذ حصانه، وقد تفطّن لها وأنها غولة تلك الغابة وقال لها محذرا :

ـ لا، لا تفعلي ! حصاني يكره أن يقربه غيري، إنّه صعب المزاج. سيضربك إن اقتربت منه. أنا الذي أربطه.

وتقدمت بغربال لتعطيهم العلف، فرفض امقيذش محذرا :

ـ أعطيني العلف، لا تقتربي منه ! إن حصاني لا يأكل إلا في طرف ثوبي.

أطعمت بقية الأحصنة. أخذ امقيذش العلف وتفحّصه،

فوجد الشعير والملح والجمر الخامد. رمى الجمر والملح وأعطاه الشعير.

حان وقت النوم. وقد فهمت العجوز أن امقيذش أذكاهم فقالت :

ـ أمقيذش، ما هي علامة نومك ؟

ـ عندما تجدين الأثافي ليّنة رخوة، أكون قد نمت. وأنت، ما هي علامة نومك ؟

ـ عندما تسمع الضفادع والعقارب والثعابين والعصافير تصوّت في بطني، فتلك علامة رقادي.

رقد الجميع. والغولة تتلمس الأثافي التي لم تلن حتى غلبها النعاس فنامت. استيقظ امقيذش على ضجيج يعلو من بطن الغولة. أيقظ إخوانه في صمت. نقل إلى فراشهم بنات الغولة، ووضع مكان البنات قرما، امتطوا أحصنتهم وأخذوا طريق العودة، نهضت الغولة من النوم فزعة. وأخذت الجونة المملوءة ماء ساخنا، وصبّته على فراش الشبان معتقدة أنّهم نائمون.

فصاحت بناتها ألما وصاحت هي هلعا، وبكت حزنا على بناتها ودعت عليهم :

ـ وكلّت أمر الانتقام منكم إلى ما وهبته لكم من الملح والطعام ! أهلكتم بناتي، يا ويحي !

وبعد مسافة قطعها الشبان، بدأت أحصنتهم تسقط الواحد بعد الآخر صريعة. وامقيذش يحملهم على حصانه الذي بقي سليما معافى.

وصلوا إلى دارهم، وقصّوا على أبيهم ما وقع، فرفع الأب من شأن امقيذش وشكره مفتخرا بفطنة ابنه. وازدادت الغيرة التهابا في قلوب الإخوة.

وخطر ببالهم أنّهم وجدوا طريقة التخلص منه إلى الأبد فاجتمعوا إلى أبيهم، وقالوا له :

ـ لو تعلم يا أبانا، إن لتلك العجوز رحى تطحن الحبوب بنفسها، دون أن تحركها يد الإنسان !

ـ ومن يأتيني بها ؟

ـ لا أحد يستطيع، غير امقيذش!

فأرسله أبوه إليها. اتجه إلى دار الغولة حاملا قصبة طويلة.

وراح يحرك الرحى من النافذة فيصدر عنها صريرا مزعجا فقالت الغولة :

ـ اسكتي أيتها الرحى الملعونة، وإلا قذفت بك إلى امقيذش أبو الهموم، الذي لا يعرف النعاس ولا النوم، وأهلك بناتي السبعة ! ويعيد هو دفعها. فرمت بها خارج البيت.

ـ خذها يا امقيذش المشؤوم !

وحملها لأبيه أمام عيون إخوانه المبهوتة. اجتمعوا وعادوا إلى أبيهم بحيلة أخرى وقالوا له :

ـ لو تعلم يا أبانا ! لتلك العجوز دجاجة عجيبة، بيضة واحدة منها تكفيك وجبة كاملة.

ـ ومن منكم يحضرها إليّ ؟

ـ لا يقدر على ذلك إلا امقيذش!

فأرسله. وذهب يحمل قصبة طويلة.

وراح ينغز الدجاجة في الليل وهي تصيح فزعقت الغولة :

ـ اسكتي أيتها الدجاجة الملعونة، وإلا قذفت بك إلى امقيذش المشؤوم، الذي لا يعرف النوم، وأهلك بناتي السبعة!

وبعد فترة قصيرة، يكرّر العملية. إلى أن ملت الغولة من ضجيجها فقذفت بها خارج البيت

ـ أمسكها يا امقيذش..

وحملها إلى أبيه. فاحتار إخوته في أمر هذا الرجل، كيف استطاع النجاة من الغولة ؟!

رجعوا إلى أبيهم، وقالوا :

ـ لو تعلم يا أبي ! للعجوز حصير إذا نمت عليه تشفى من أمراضك، ولن تتألم أبدا.

وأرسل امقيذش كالعادة.

واحتار في كيفية انتزاع الحصير منها. وبعد التمعّن في المشكل اهتدى إلى حيلة.

انتظرها حتّى خرجت من البيت وبسرعة ملأ الحصير شوكا. حاولت النوم فلم تستطع فقد كان الشوك يُؤلمها.

ـ إيّاك أيّها الحصير الملعون، ألا تكفّ عن فعلك ؟!.. توقّف عن وقاحتك وإلا قذفت بك إلى امقيذش أبو الهموم، الذي لا يقترب منه النعاس ولا النوم !..

ولكن الأشواك ظلّت تؤذيها فانتزعت الحصير وقذفت به خارج الدار.

ـ خذه يا امقيذش...

وحمله إلى أبيه. اجتمع الإخوة والحنق يزلزل أوصالهم، والغيرة أحرقت تفكيرهم واتفقوا على أمر رأوه نهاية أكيدة لهذا الأخ الشبيه بالإنسان. ثم قالوا لأبيهم

ـ آه، يا أبانا ! لو تعلم ! إذا نظرت إلى تلك العجوز عن قرب فستعود شابا قويّا.

ـ ومن يأتيني بها ؟

ـ لا أحد قادر على ذلك غير امقيذش !

فأرسله. واتجه إليها نهارا، حاملا الخشب.

وقرب دارها حاول صناعة صندوق، فراح يجمع الألواح ويسمّرها. فخرجت إليه وفرحت لرؤيته، ورحّبت به قائلة :

ـ ماذا تفعل يا امقيذش ؟! تعال إلى البيت تأكل شيئا!

ـ وكيف آكل، وأنا محتار في أمر هذا الصندوق ؟! آه، يا أمي العجوز ! لو تعلمين ! لقد ماتت أمّي ولا أدري إن كان هذا الصندوق على مقاسها أم لا ؟! ليس لدي مقاسها، ولكنّها مثلك تماما طولا

وعرضا !.. بعد أن أنهي هذا الصندوق أرافقك إلى منزلك.

ـ إذن قسه عليّ !

فجربت مرة، وكان قصيرا. ثم غيّر الألواح ودخلت فيه ثانية فأغلق الصندوق ووضعه على حصانه الذي أوصاه بالجري حين يسأسئ به (يمازحه).

الحصان يجري وهو يسأسئ به :

ـ قف يا حصاني لأنزل جدّتي..! قف يا حصاني لتنزل (أما جدة !).

والحصان يزيد في السرعة حتى وصل إلى البيت. أنزل الصندوق، وقال :

ـ والله العظيم ! وحرام عليّ قبري ! لن أعطيكم المفتاح حتى تبنوا لي قصرا شاهقا، جدرانه من حديد. وتملؤونه بالغذاء يكفيني سنوات طويلة !

فبنوا له قصرا كما أراد دخله ورمى إليهم بالمفتاح.

فتحوا الصندوق فبدأت بالتهام العجوز الذي أراد أن يعود شابا.

ثم أكلت أفراد الأسرة واحدا تلو الآخر. وبحثت عن امقيذش فلم تعثر عليه.

أطلّ عليها من النافذة فقالت له :

ـ إنّك في مكان عال جدا وأنا في شوق عظيم إليك ! ألم تشته مقابلتي ؟!

ـ أنا أفضّل موقعي هذا، وها أنا قد رأيتك. وبقائي هنا لن أزعجك !

ـ تعالى نحرث بستانا.

ـ موافق، غدا إن شاء الله نبدأ.

ونزل ليلا وعزق نصيبه. استيقظت في الصباح، وانتظرته ولم ينزل. فذهبت إلى البستان، ووجدت نصفه معزوقا فقالت له :

ـ علينا أن نغرسه بطيخا الآن !

ـ موافق يا أمي العجوز ! في الغد إن شاء الله نغرسه معا. في الليل غرس نصيبه.

ولما نضج البطيخ، قالت له :

ـ انزل لتأخذ نصيبك من البطيخ.

ـ نعم يا أمي العجوز، لما أنهي شغلي.

وقد تفطنت لنزوله ليلا. انتظرته ولم تنم. وكان يراقبها من فوق، وغفت لحظة ثم انتفضت، جرت إلى البستان وهو بداخله وسمع خطاها فحفر ثقبا ونزل فيه وبقي رأسه فوق التراب.

أخذت تتلمس البطيخ في الظلام، فوقع كفّها على رأسه، ووجدته لينا (هذه نضجت. سأطلب من امقيذش النزول لأخذها).

رجعت إلى الدار لمّا يئست من القبض عليه. وخرج هو من ثقبه، وقطف ما في البستان، الحبَّ والأغصان.

في الصباح، نادته قائلة :

ـ تعالى يا امقيذش لنقطف البطيخ، لقد نضج كله.

ـ أنا أخذت نصيبي.

أطلت على البستان، ووجدته خاليا. اقتلع كل شيء حتى الجذور، فاحتارت في كيفية التصرف معه.

ـ كيف أصل إليك يا بني ! لقد طال فراقنا !

ـ اجمعي أخواتك كلهن، واحملي شذبا ضخما وحطبا كثيرا ثم ضعيه قرب حائط الدار، إلى أن يصل إلى نافذتي وأشعلي فيه النار ثم اقذفي بنفسك فيه مع إخوتك، وسيحملك اللهب إليّ بسرعة، وفعلت ما قاله.

قفزت على اللهب، فالتصقت بالحائط الحديدي، الذي احمرّ من اللهب. وقبل أن تموت قالت :

ـ سأقتلكم جميعا، ولو بقي مني غير الرماد.

تخلّص منها وفتح باب قصره واستأنف حياته. نبت بقل

بجانب حائط الدار، وقطفته زوجته وطهته، أكلوه فماتوا جميعهم بالبقل الذي نبت في رماد الغولة.

ابـن الأخـيـرة

أمـاشـهـو !

عن أحد السلاطين، ولا سلطان إلا الله سبحانه. كان ينجب الأولاد ويختار لهم الأسماء، حتى بلغ عددهم تسعا وتسعين ولدا. لكنه نسي أن يعطي اسما لابنه الأخير. وبقي دون اسم حتى كبروا.

اشترى لهم الأسلحة والأحصنة ودرّبهم ليكوّن منهم محاربين. وأظهر الابن بلا اسم تفوّقا على إخوته. وكان أفضلهم ذكاء وفطنة وتدريبا مما جلب عليه غيرتهم فعيروه واستهزؤوا به.

ـ يا ابن الأخيرة، لو أحبّك أبونا لأعطاك اسما !

اغتاظ من ذلك. واستولى عليه الحزن. فاعتزلهم في بيته.

انتبه أبوه يوما لغيابه، إذ لم يره بين إخوانه. وسأل أمه :

ـ أين ابنك ؟! اذهبي وابحثي عنه.

بحثت عنه فوجدته في غرفته شارد الذهن كئيبا. منكمشا على نفسه يفكّر، وعندما سألته :

ـ ما بك يا بني ؟!

ـ أنت لا يحبّك أبي ! لو أحبّك وأحبّني لأعطاني اسما مثل إخوتي !

ـ أبوك يحبني أكثر من الأخريات !
أخبرت زوجها بسبب غيابه
ـ لقد أعابه إخوته، لعدم تسميته.
ـ إذن أسميه سيدنا هابل وسيدنا وابل وسيدنا قابل !
واستعاد الشاب مرحه، إذ صار يفضل إخوته بحمله ثلاثة أسماء دفعة واحدة.

وبلغ الأبناء سنّ الزواج، واحتار الأب في أمرهم. ووجده ابن الأخيرة أمام النافذة يفكر مهموما.

دنا منه وقال :

ـ ما بك يا أبي ؟ ماذا يشغل بالك ؟!

ـ إيه يا بني ! أنت حزنت لأنني لم أسمك، فكيف بي أنا الذي سأزوّج هذا العدد من الرجال ! ماذا أفعل ؟! أين أجد عدد البنات الكافي من مقامهم ؟! أأزوج أحدكم ابنة سلطان، وآخر ابنة فلاح ؟!

ـ لا تشغل بالك يا أبي، أنا أتكفّل بالمسألة. ولكن يجب أن يطيعوني جميعهم، ويفعلوا ما أقول.

فأمرهم أبوهم بطاعته وتنفيذ أوامره دون مناقشة.

خرج بهم، إلى أحد الملوك، سمع أن له بنات كثيرات. ولكن قصره محروس أشدّ الحراسة، ولا يستطيع الاقتراب منه أحد دون ترخيص من السلطان.

لما بلغوا مشارف القصر، طلب من إخوته إقامة مخيم، والبقاء هناك لا يتحركون. يحرصون على أن لا تنطفئ نارهم. وإذا جاءهم أحد، يقولون له فقط : «ليس معنا أكبرنا». بينما سيغيب هو مدة ثم يعود إليهم.

قصد القصر ليلا، حاملا العشب واللحم. وجد حمارا أعطاه العشب ثم قتله، ووجد كلبا ونسرا فأعطاهما اللحم ثم قتلهما. واعترض طريقه تسع وتسعون غولا، فقطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر.

تسلّل إلى مبيت بنات السلطان. وفي صمت متناه، اختار أصغر الفتيات وأجملهن. نزع خاتمها وألبسها خاتمه، وانصرف عائدا إلى خيمته.

في الصباح، اهتاج القصر مما وقع، واشتدّ الغضب بالسلطان فجمع أهل المدينة كلهم. وطرح عليهم سؤالا واحدا.

ـ من يخبرني بما وقع في قصري الليلة ؟!

ومع دهشة الجميع وفزعهم لم يجب أحد، ولم يكن أحد يعلم بالخبر اليقين، سأل وزيره.

ـ ألم يبق في المدينة أحد ليطلعنا عمّا وقع بداري ؟!

ـ لم يبق إلا مجموعة من المتنزهين، ولا أظن أنّهم على علم بشيء.

ـ أحضرهم إليّ!

ورافقوه إلى حيث يخيم الإخوة، وسألهم السلطان فصمتوا. قال وزيره :

ـ سيدي السلطان، كيف تنتظر من هؤلاء أن يعلموا بشيء ؟! ولا همّ لهم سوى التجوال والنوم ؟!

فنطق هابل وابل وقابل.

ـ ألم يمت لك حمار يا سيدي السلطان ؟

ـ بلى !

ـ ألم يمت لك كلب ؟!

ـ بلى !

ـ ألم يمت لك نسر ؟

ـ بلى !

ـ وتسع وتسعون غولا ؟

ـ بلى !

ـ أنا من فعل ذلك كلّه !

اندهش الجميع، واستغربوا أمره !

ـ وإذا لم تصدقني، ستجد خاتمي عند ابنتك، وها هو خاتمها.

وتأكد السلطان من قوله.

ـ صنيعك يجازى بالموت، ولكنّ شجاعتك وجرأتك وصراحتك تجعلني أحترمك، وأقدّر رجولتك وفتوتك. ولابد، لأصفح عنك، أن تخبرني عن شأنك، فماذا تريد أيّها الشاب ؟!

ـ نحن أمراء، ولسنا بؤساء أو مشردين. وأريد بناتك زوجات لنا، أنا وإخواني.

أعطاه بناته. واختار هو صاحبة الخاتم، أجملهن فغار منه إخوته; أخذوا طريق العودة إلى بلدهم.

في الطريق، وجدوا بئرا غائرا. طلب منهم النزول لملء قربهم بالماء فرفضوا كلهم. تطوع هو ونزل. عندما بلغ منتصف البئر، قطعوا الحبل فسقط. تعلّق بعرق شجرة ولم يصل إلى قاع الجبّ، وبكمت زوجته في الحين من الصدمة.

رجعوا إلى أبيهم. وحين وصلوا، نادى

ـ سيدنا هابل سيدنا وابل سيدنا قابل، يتقدّم.

ولم يره. أعاد النداء ولم يره. فقال أحدهم

ـ الله يرحمه يا أبي، لقد أكله الذئب !

فنادى الأب على الذئب :

ـ أأنت الذي أكل ابني ؟!

قال الذئب :

ـ فالله يحييني إلى القرن (اربعطاش) إن أكلته ! أنا لم أر ابنك قط !

فأصيب الأب والأم بالبكم.

وظل الشاب في البئر، حتى مرّ تجار من هناك فأخرجوه. كان هزيلا كالفرخ.

دخل بستان أبيه. يأكل الفاكهة، وعند حضور الخادمة يختفي.

وظل كذلك حتى استرجع قوته وصحته. أعطى قميصه للخادمة وطلب منها أن تسلّمه إلى أبيه.

ولمّا شمّ الأب القميص نطق ونطقت الأم والزوجة. فأمر الخادمة

بأن ترافقه إلى مكان وجود ابنه. والتقاه في سرور عظيم. وقصّ على أبيه ما وقع.

ـ ما الذي يشفي غليلك يا بني ؟! أأقتلهم ؟!

ـ لا يا أبي، لا تقتلهم. اطردهم من المدينة، ومن مملكتك، أنا لا أريد رؤيتهم بعد اليوم.

فنفاهم عن مملكته. وأقام عرسا كبيرا لابنه.

بقرة اليتامى

أماشهو !

عن رجل له طفلان، ولد وبنت، ويملك بقرة. وكانت زوجته على وشك الممات فطلبت منه أن يعاهدها على الحفاظ على البقرة ولا يبيعها، فهي لولديها. وعاهدها

ـ أعاهدك على أنّني لن أبيع هذه البقرة، ولن أرهنها.

ماتت زوجته. وتزوّج مرة أخرى. ولدت له بنت. فتخلت هذه الزوجة عن ابنيه من الزوجة الأولى، وأهملتهما وكرهتهما. ووصل بها حقدها عليهما إلى درجة عدم إطعامهما.

لجأ الولدان إلى البقرة، يشربان من ضرعها عندما يخرجان للمرعى. وتحسّنت حالتهما، واستوت صحتهما.

احتارت المرأة في الأمر ! فهما يبدوان أحسن من ابنتها صحة وهي التي تقدّم لها أحسن الأطعمة ! كيف تتحسّن صحتهما وهما لا يأكلان شيئا ؟!

فأمرت ابنتها بمرافقتهما لمعرفة سرهما، وأمرتها بأن تأكل مما يأكلان، وتشرب مما يشربان.

تفطن الطفلان لسبب حضورها معهما إلى المرعى. فكانا يذهبان

لرضع البقرة بالتناوب.

بعد عودتهم إلى البيت أخبرت أمّها بأنهما لم يأكلا شيئا. ولكنّهما كانا يغيبان عنها بالتناوب. فقالت :

ـ عندما يتحرّك أحدهما من أمامك اطلبي مرافقته ولا تنسي.

في اليوم الموالي ألحّت على مرافقتهما أيضا. فقال الأخ لأخته :

ـ سندعها تأتي معنا، وسأترك لها أنا قليلا في الضرع، وأنت تتركين قليلا.

رضعا نصيبيهما. ولما اقتربت ابنة أبيهما، لترضع بدورها، ثارت البقرة ورفستها. فأصابت عينها.

جرت إلى أمّها مذعورة نائحة، وروت لها ما حدث. تفحّصت عينها وتأكدت أن ابنتها لن ترى بها مستقبلا، فألحّت على زوجها في بيع البقرة.

أخذها إلى السوق، عرضها وهو يصيح :

ـ من يشتري بقرة اليتامى، ليست للبيع ولا للرهن ! رفض الناس شراءها. وأعادها معه .

وأصرّت عليه أن يعيدها إلى السوق، وأن يبيعها، وإلا ستترك الدار.

وكرر يوم السوق الموالي النداء نفسه فلم يشترها أحد.

فقالت له زوجته :

ـ هذه البقرة يجب أن تباع، ويستحيل أن تبقى في البيت ! وجرّها إلى السوق مرة أخرى وفي هذه المرة تبعته متخفية في برنوس. ووقفت قرب السوق تراقبه. وبدأ الرجل ينادي على البقرة :

ـ من يشتري بقرة اليتامى، ليست للبيع ولا للرهن !

وقالت هي :

ـ اشتروها، وشاريها يفوز بالبركة ويربح منها الكثير ! فبيعت لجزّار.

اتجه الولدان إلى قبر أمهما، يبكيان

ـ لقد باعوا البقرة يا أمي !

وأجابتهما :

ـ وما عساني أفعل يا ولديّ ؟! أحضرا ما في أمعائها، وصبّوه على قبري. ثم عودا إليّ. وفعلا ذلك.

في صباح اليوم التالي، قصدا قبر أمّهما. ووجدا جعبتين، إحداهما فيها عسل، والأخرى فيها سمن فرضعا، وكذلك صارا يفعلان كل صباح.

وبعد مدة، ظهر عليهما النشاط والصحة. فأمرت ابنتها برافقتهما حيثما ذهبا. واطّلعت على السرّ. وطلبت أن ترضع من القصبتين، وحين مصت الجعبة الأولى، خرج منها القيح. وأخبرت أمّها بما وقع.

حينذاك أخذت قدحا من الجمر المتقد. حفرت القبر وصبته فيه.

لما قصد الولدان قبر أمهما لم يجدا شيئا فبكيا، ونادتهما أمهما قائلة :

ـ لا أستطيع أن أفعل شيئا، بعد أن أحرقتني. لم يبق لدي ما أقدّمه لكما، عليكما أن تفرا من البيت. ولكن حذار ! ستجدان ثالة الغربان فلا تشربا منها، ثم ثالة الأغوال لا تشربا منها، ثم ثالة النسور لا تشربا منها. بعدها تعثران على ثالة السلطان، اشربا واغتسلا وتوجد بقربها شجرة عالية اصعدا عليها وانتظرا.

حين وصلا ثالة الغربان قال الولد :

ـ عطشت يا أختي، أريد أن أشرب الآن.

ـ أنسيت كلام أمك ؟! لا تشرب.

وصلا إلى ثالة الغيلان. وأراد الولد أن يشرب فذكّرته بقول أمهما، واستمرا في السير.

وصلا إلى ثالة النسور، وأراد الولد أن يشرب، فحذّرته أخته وذكّرته بكلام أمهما. ولكنه لم يتمالك نفسه وشرب فتحوّل إلى نسر.

استأنفت هي السير، ووصلت إلى ثالة السلطان. شربت واغتسلت ثم صعدت إلى الشجرة.

جاء السلطان ليسقي حصانه فتردّد الحصان، يقترب من الماء ثم يفرّ راجعا. ألحّ عليه فتراجع. تقدّم السلطان ليرى ما يخيفه في الماء ! فرآها فوق النخلة.

ـ انزلي يا مخلوقة !

ـ لن أنزل.

أمر جنوده بإنزالها. أخذها معه إلى القصر وتزوّجها. وأخبرته عن حال أخيها مضيفة :

ـ وتعاهدني بالله على أن لا تقتله، فقبل، وعاهدها.

وفي كل مساء، يحط أخوها فوق الدار يستأنس بأخته ويقضي هناك الليل. وهي لا تخرج من بيتها ليلا أو نهارا.

وبلغ خبرها زوجة أبيها، فأرسلت ابنتها إليها.

قصدتها، وأظهرت الفرحة بملاقاة أختها من أبيها. ورحّبت هي بها. وكانت قد رأت بئرا في ساحة الدار حين دخلت، وقررت أن تستعمله للتخلص منها.

غطّت البئر بحصير، وطلبت من أختها، زوجة السلطان، الخروج لتفلي رأسها، وهي التي لم تخرج منذ زواجها.

قادتها إلى الحصير وطلبت منها الجلوس عليه فوقعت في البئر.

عاد الزوج في المساء فوجد زوجته قد تغيّرت، عرفها بيضاء

نضرة، وهذه سوداء ! عيناها جميلتان جذابتان وهذه عوراء ! استغرب لحالها !

ـ ما الذي سوّد جلدك يا امرأة ؟!

ـ ماؤكم يا زوجي !

ـ وما الذي أعمى عينك ؟!

ـ كحلكم يا رجل !

ـ تخلّصت منها، وبقي أن تتخلص من أخيها. فطلبت من السلطان أن يمسك الطائر ويذبحه.

وأخذ الطائر ينزل ليلا على حافة البئر وينادي :

ـ إنّهم يسنون السكاكين لجزّ رقبتي، أعيشة عيشة أختي !

وتجيبه :

ـ قل للسلطان يذبح بقرة سوداء، ينزلها في سلة، يصعد الحسن والحسين، وأتبعهما أنا.

و يتكرّر المشهد كل ليلة. ولم يخبر السلطان. حتى سمع جار السلطان ما يقع.

قال الأخ : (إنهم يسنون السكاكين لرقبتي ! أعيشة.. عيشة أختي !)

ـ قل للسلطان يذبح بقرة سوداء، ينزلها في سلة، يصعد الحسن والحسين، وأتبعهما أنا!

فسمع محاورتهما جار فأخبر السلطان :

ـ إن بئرك عامر! أنصت إليه ليلا لتسمع.

اختفى في الحديقة، يسترق السمع، جاء النسر وتكرر الحوار. فأسرع، ونفذ ما طلبته وخرجت المرأة مع ابنيها. وبعد أن عالجهم واعتنى بهم، سألها :

ـ ما الذي حدث ؟!

فقصت عليه حياتها كلّها.

ـ وما الذي يشفي غليلك ؟!

ـ أن تقيّدها في سجن غائر إلى الممات. كما ألقت بي في جب، تبقى فيه، لا تموت ولا تحيا. وترسل إلى أمّها ثيابها ملطخة بالدماء، وتخبرها بأن ابنتها افترستها الأسود.

وفعل ما طلبته. وكانت لوعة الأم على ابنتها عظيمة وكربها أعمق.

تسعة وتسعون أخا

أماشهو !

عن أحد السلاطين، ولا سلطان إلا الله سبحانه، كان له صهر يحترف اللصوصية بمساعدة أخيه.

كان الأخوان يسرقان من خزينة الملك ولم يستطع القبض عليهما.

في أحد الأيام مرض أحد هما ومات، ولازم الآخر داره مهموما حزينا. واعتقد الناس أنّه حزن على أخيه، وهو في الحقيقة محتار فيمن يعوّض أخاه الميت! لم يجد من يثق به لمصاحبته في حرفته، ومن الصعب أن ينجزها وحده.

وجاءه ابن أخيه وقال له :

ـ لا تشغل بالك يا عمي، أنا أعوّض أبي !

ـ المهمة عويصة، وأنت مازلت شابا لا تستطيع القيام بها.

ـ أنا قادر على مساعدتك، خذني معك وسترى.

ـ طيب،سأجرّبك،

ـ وإذا نجحت فيما أطلبه منك أصحبك معي. لدي دجاجة تحضن بيضها، عليك أن تسحب البيض من تحتها دون أن تجعلها

تنتبه.

شرع الشاب في سحب البيض، ينزع واحدة ويعطيها لعمه، وهذا يعيدها دون أن يعلم الشاب. ثم أخرى فأخرى.

استغرب الشاب من كثرة البيض، وعدم فراغ العش. فقال لعمه همسا :

ـ البيض لا ينتهي ! وقد نزعت ما يمكن أن تحضنه عشر دجاجات !

ابتسم العم وطلب منه التوقف. ثم شرح له ما وقع ورضي عن ابن أخيه، وقبله في العمل معه.

عادا إلى الخزينة، يأخذون في كل مرة كمية من المال، احتار السلطان في كيفية دخول السارق! كل الطرق التي استعملها لم تنجح في الإمساك به.

فحضّر كمينا ليوقعه فيه. ملأ دربا بالأحجار الكريمة وأمر مجموعة من الجنود بحراسة الدرب من الجهتين. فكمن الحراس ينتظرون.

هيأ العم عددا كبيرا من الأحصنة، وضع في حوافرها غراء، وصبغ الأحصنة بلونين ؛ جهة بيضاء وجهة حمراء، ولبس هو وابن أخيه ثوبا باللونين نفسهما وانطلق بالأحصنة يعبر الطريق. والحراس في مكمنهم، لم يتفطنوا لما يحدث.

في الصباح وجدوا الأحجار الكريمة قد سرقت، ولم يبق على الطريق إلا بضعة منها متناثرة، ولم يروا السارق.

سألهم السلطان عن الفاعل، فكانت إجابتهم متناقضة. قال فريق :

ـ لم يقترب من الدرب أحد، طول الليل. لم نر غير فارسين بلون أحمر يقودان مجموعة من الأحصنة الحمراء.

فقال الفريق الثاني :

ـ بل مرا يلبسان ثوبا أبيض وكانت الأحصنة بيضاء !
واحتدم النقاش بينهما، أحمر، أبيض....
فقطع رؤوسهم. اشتدّت حيرته، فقصد أحد حكماء ذلك العصر (أمغار أزمني).
ـ أيّها الحكيم، أشر علي خزينتي تسرق، ولم أجد منفذا لدخول السارق، ولا استطعت الإمساك به.
ـ أشعل النار في المخزن، وسد الأبواب كلّها. واخرج وراقب، فمن حيث يخرج الدخان فذاك مدخله.
وفعل برأيه، فعرف المنفذ، ثم عاد إليه يخبره.
ـ بعد أن عرفت المكان، ضع تحته برميلا من الزفت، وستمسك به.
قفز العم من الثقب كالعادة فوقع في البرميل.
ـ آه يا ابن أخي ! لقد وقعت ولن أتمكن من النجاة.
ـ وما العمل يا عمي ؟!
ـ اقطع رأسي، ولن يكتشفنا السلطان.
وفعل الشاب ما أمر به. وحمل رأسه، ونهى النساء عن البكاء في الدار، وإلا افتضح أمرهم.
ـ احملن قلل الماء، ثم اكسرنها في الطريق، وابكين عليها ماشئتن.
وفعلن بما نصحهن. واشتد نواحهن، وكان المارة يواسونهن ويؤكدون لهن أن القلل تعوّض بسهولة.
والسلطان لم يحل اللغز. جمع أهل المدينة وقال لهم :
ـ أطلب من الفاعل أن يكشف نفسه، وأنا أعاهده على أن أفعل ما يريد، ولن أؤذيه.
قال الشاب، وهو يعلم أن السلطان لن يغفر له :
ـ إن عاهدتني على العناية بالأولاد الباقين أخبرك بالفاعل.

عاهده السلطان فقال :

ـ أنا هو الفاعل مع عمي.

وقتله. بقي السلطان يفكّر في كيفية التخلّص من التسعة والتسعين ولدا. فأمر جنوده بأخذهم وإلقائهم في البحر. وضعوهم في أكياس وحملوهم.

لمّا بلغوا الشاطئ وقع اختلاف بين الجند فمنهم من أراد قذفهم في الليل حتى لا يرونهم يغرقون. ومنهم من أصرّ على القذف بهم في النهار ليشهدوا تخبطهم في الماء. وكانت الغلبة للذين فضلوا إلقاءهم في النهار.

نام الجند. وفي الليل أخرج أكبرهم سكينا وفتق كيسه وحرر إخوانه طالبا منهم الصمت. وضعوا الأكياس على أكتافهم وتسللوا في هدوء.

ساروا يقودهم الأكبر. وبعد كل مسافة يعيد عدهم. ولاحظ في واحدة من تلك المرات أن أصغرهم غير موجود فعاد أدراجه.

وكان أخوه قد علقت أذنه بشوك العليق ولم يستطع الخلاص منه. اقترب منه الذئب لافتراسه، فصاح

ـ ابتعد وإلا ناديت أخي الأكبر!

يبتعد الذئب ثم يرجع إليه. يحذره الطفل فيبتعد مدة ثم يعود. فصاح.

ـ يا دادا ! يا أخي الكبير !

وصل أخوه، ووجده على ذلك الوضع فحرّره وألحقه بإخوانه واستأنفوا الطريق.

وجدوا أنفسهم في غابة كبيرة. وفي منتصفها كوخ يخرج من سقفه الدخان وتمتد حوله مروج عديدة، تركهم أكبرهم في مكانهم وقصد الكوخ.

وجد فيه عجوزا ومعها نعجة داخل الكوخ، وقف عند الباب

ـ من هناك ؟!
ـ متسول جائع، أطعميني في سبيل الله.
ـ ليس لدي ما أتصدق به. أملك ما آكل وأشرب إلى الممات ! وما أتدفأ به إلى أن يحين أجلي.
ـ أمي العجوز، أرجو منك أن تعطيني قطعة خبز صغيرة.
أدخلته البيت أعطته قطعة من خبزتها.
ـ هذه أنقصها من عيشي!
أخذها الشاب وفتتها قطعا صغيرة بعدد إخوانه فصاحت به :
ـ أوه.. يا بني ! لماذا أفسدت القطعة وأنا أنقصتها من نصيبي ؟ لو كنت أعلم فعلتك ما أعطيتك إيّاها !
ـ إيه يا أمي العجوز ! لن أنال من هذا كلّه سوى هذا الجزء الصغير. فمعي إخوة كثيرون ولم يأكلوا شيئا من الطحين منذ مدة.
طلبت منه إحضارهم والرزق على الله. وجاء بهم، أعطتهم قدحا من الحليب فتعجّبوا منه
ـ لماذا حليب نعجتك أسود ؟!
ـ لأنها لا ترعى العشب يا بني ! إنها تأكل من الجمر الخامد !
ـ ولماذا يا أمي العجوز ؟! وأنا أرى حقولا خضراء كثيرة حول كوخك ؟!
ـ لأن الحقول كلها ملك لوحوش الغابة. ذاك حقل الأسد، والآخر للدب، والآخر للثعلب، والآخر للحجل، والآخر للأرنب.. وغيرهم من الوحوش. وأنا خائفة منهم. لهذا تبقى النعجة في البيت.
ـ وهل تملكين بندقية ؟!
ـ لدي بندقية، ولا أستطيع استعمالها.
في اليوم الموالي طلب بندقيتها، تفحّصها ثم قال لها
ـ أخرجي نعجتك لترعى.
ـ لا يا بني ! ستفترسها الوحوش !

ـ لا تخافي يا أمي العجوز، أنا أتولّى أمرها.
بدأ بحقل الحجل فصاحت :
ـ يا راع في حقل الحجلة، ارحل وإلا قصدتك.
ـ تعالي أنا في انتظارك، أنا عمارة الدبوس !
جرت إليه، فقتلها وسلمها للعجوز لطهيها.
ـ أبعدها عني ! لا أريد أن ألمسها، بعد رحيلك ستنتقم مني الوحوش.
ـ لا تخافي لن يزعجوك بعد رحيلي.
وطلب طهيها لإخوانه ففعلت.
في اليوم الموالي قصد حقل الذئب.
ـ يا راع في حقلي ! ارحل عنه.. إذا وصلت إليك أقتلك.
ـ تعالى إن كنت شجاعا ! أنا عمارة الدبوس في انتظارك، وهجم عليه وقتله.
ـ خذي يا أمي العجوز
ـ لا أستطيع يا بني !
ثم طهته لإخوانه.
في اليوم الموالي قصد حقل الأرنب
ـ من هناك في حقلي ! ارحل وإلا قضيت عليك.
ـ تعالى ! عمارة الدبوس في انتظارك.
وقتله. ثم مرّ على الحقول كلّها بالدور، الدب، والخنزير، والأسد.. حتى قضى على الحيوانات جميعها، بعضها بالرصاص والباقي بالسيف، بعد أن نفدت الذخيرة.
واستقر عند العجوز ردحا من الزمن، يربّي إخوانه، ويدرّبهم على استعمال البنادق والسيوف. وسلّحهم جميعهم. ولّما تأكّد من قدرتهم على القتال، رحل بهم إلى بلدة أبيه.
حين وصلوا ربوة تشرف على المدينة، طلب من كل واحد منهم

أن يقيم خيمة له، ويشعل نارا، وحذرهم من ترك أماكنهم إلى أن يعود.

قصد القصر ليلا، يبحث عن أمه خفية والتقاها. استطلع أخبار القصر والجيش، واستفسر عن أمّهات إخوانه، فعلم أن أم أصغرهم ماتت. فطلب من أمه أن تستقبل أخاه الأصغر كأمّه عندما يدخلون القصر وتناديه (يا بني). ثم رجع إلى المعسكر.

في الصباح، خرج الإمام للآذان انصعق مما رأى، وأرعبه منظر الخيم الكثيرة. وبدل الله أكبر، صاح :

ـ الله القهار!

فأرسل السلطان من قطع رأسه، ليؤذن آخر، أقبل مؤذن آخر، وكرّر نفس النداء (الله القهار !). وأرسل من يقطع رأسه، فترجاه الإمام أن ينظر قبل تنفيذ مهمته. ولما رأى المخيم، صاح الجندي بدوره :

ـ الله القهار!

وجرى إلى السلطان ليخبره بما حدث. خرج السلطان، ورأى ذلك العدد من الخيم، فاستولى

عليه الرعب وفهم أن جيشا ضخما يحاصره. أرسل من يستخبر عن أمر هذا الجيش. فاستقبلهم (عمارة) بعيدا عن المخيم. وقال الرسول

ـ إن السلطان يطلب منكم الدخول، وان كانت رغبتكم في الحكم، تكون أنت السلطانا وهو وزير تحت أمركم.

ـ قل للسلطان يخرج جيشه، نحن سنهاجمه بعد لحظات، أو يرسل مجموعة، وأنا أخرج بمجموعة، والمنتصر يخضع للآخر.

وفي اضطراب وخوف رهيب، استسلم السلطان، وتنازل عن الحكم. ولكنّه أعدم.

ودخل الإخوة منتصرين. وفي غبطة كبيرة، التقوا أمهاتهم.

غـصـن الـوحـوش

أمـاشـهـو !

عن امرأة، اصطاد زوجها حجلة وضعتها في قدر وغطتها. نزعت ابنتها الغطاء فطارت الحجلة، فزعت الأم وصاحت :

ـ ويحيك ! ماذا فعلت ؟! سيقتلني أبوك !

أخذت ابنتها وفرّت تمشي وتمشي، نزل عليها الليل في غابة، لجأت إلى شجرة كبيرة تبيت تحتها. وفجأة سمعت لغطا كبيرا، وضجيجا مزعجا لأصوات متعددة. فحملت ابنتها وصعدت فوق الشجرة.

بعد فترة قصيرة رأت وحوشا عديدة تقبل إلى المكان، وتستقرّ تحت الشجرة التي تتخذها مبيتها لها.

ربضت الحيوانات تحتها والأم مع ابنتها فوقها.

في الليل، أرادت البنت التبول وقالت لأمها فطلبت منها أن تفعل ذلك في أذنها.

قضت حاجتها لكن قطرات سقطت على شوارب الأسد فانزعج وقال :

ـ ما هذا ؟! اخرج أيّها الفيل وانظر إلى السماء إن هي

صاحية !

تحرّك الفيل حدّق في السماء وقال :

ـ السماء صافية، وكل نجم يقاس بجسمي، قال الأسد :

ـ إن مأوانا عامر بإذن الله ! اصعدي أيّتها النملة، قالت وهي خائفة :

ـ أنا ضعيفة، سيمحقونني !

ـ اصعد يا ثعبان.

صعد، أبعدت الأم ابنتها عنها. اقترب من الأمّ فسقطت وكانت حاملا. أحاطت بها الوحوش، والتفتت الدبة إلى أعلى الشجرة ورأت البنت فقالت للوحوش التي بدأت تنهش الأم :

ـ أرجوكم ! أعطوني ما بداخلها فأسناني ليست قوية، وهو طري يناسبني.

أخرجوا الطفل من بطنها، وسلّموه إلى الدبّة التي انزوت به لتخفيه في دغل. ثم عادت، وأخذت عظام أمه لترضعه نخاعها.

في الصباح تحركت الوحوش للخروج إلى الصيد وبقيت الدبّة نائمة تحضن الطفل.

ـ قومي يا دبّة، حان وقت الصيد.

ـ اذهبوا أنتم، أنا شبعت من أكل أمس لا أريد المزيد.

فتركوها. نادت البنت.

ـ انزلي لأخذ أخيك

ـ أخاف أن تأكليني !

ـ لو نويت أكلك، لبدأت بهذا الذي في حضني ! انزلي !

فنزلت.

ولّما لم تلتحق الدبّة برفاقها قال الأسد

ـ اذهب يا ابن آوى، لتطّلع على سبب بقائها هناك !

وتفطنت الدبّة لعودة أحدهم فأخفت البنت مع أخيها. وصل ابن آوى فبادرت إلى أخذ غربال سلّمته له قائلة :

ـ اذهب لملء هذا بالماء !

استلمه وذهب وقالت للبنت :

ـ خذي أخاك واهربي قبل أن يأتي آخر !

فرّت جارية بأخيها، ولم تتوّقف حتى بلغت قرية استقرّت بها، تشتغل عند السكان، وتتسول.

وظلت على هذه الحال تعمل وتتسوّل حتى كبر أخوها. زوّجته، وعاش الثلاثة معا.

في يوم من الأيام، قالت لها كنتها :

ـ هيا نتبادل الخير والمحبة !

ووافقت. أحضرت الأخت بيض دجاج، وأحضرت الأخرى بيض ثعبان. وأكلت كل منهما بيض الأخرى.

خلق ثعبان في بطن الأخت. وبدأ بطنها ينتفخ. قالت الزوجة لأخيها.

ـ إن أختك حامل !

استغرب الرجل الأمر.

ـ وكيف يحدث ذلك ؟!

ـ إذا لم تصدقني، اطلب منها أن تفلي رأسك، وضع أذنك على بطنها لتتأكد.

وفعل ذلك. فوجد بطنها منتفخا، وفيه شيء يتحرّك. اشتدّ به الغضب وحملها ليلا وتركها في الغابة.

قضت الليل باكية.

في الصباح رأت دارا قرب الغابة، فقصدتها واختفت في

إحدى غرفها. ويسكن تلك الدار الطلبة. عندما ينتصف الليل تتسلّل لتناول الطعام ثم تعود إلى مخبئها.

انتبه الطلبة لنقص في الطعام، واتفقوا على حراسة المؤونة ليمسكوا السارق.

الأول غلبه النعاس فنام، فخرجت وأكلت وعادت. نام الثاني كما نام الآخرون، إلى أن وصل دور السابع آخرهم الذي بقي يقظا فأمسك بها.

قصت عليه الفتاة كلّ ما وقع لها. أشفق عليها الطالب، وأعجب بجمالها. فصاحبها إلى بيته وتزوّجها. ثم قصد حكيما وشرح له حالتها فقال له :

ـ عليك أن تؤكلها كثيرا من اللحم المقلي المالح، ولا تعطيها ماء. وحين يشتدّ عطشها علّقها من رجليها وضع تحت فمها قصعة مملوءة بالماء وحرّك الماء بملعقة أو عمود. وسيخرج الثعبان من تلقاء نفسه.

وفعل ما قاله الحكيم. علّقها بعارضة الدار وترجّته ألا يرمي الثعبان قائلة

ـ أستحلفك بالله، أن تبقي على الثعبان ولا ترميه ! وعدها بالمحافظة عليه.

أطل الثعبان من فمها. فأخذ يبعد القصعة قليلا قليلا. الثعبان يتبع الماء، وهو يجرّ القصعة، حتى سقط كلّه على الأرض وقتله.

استيقظت من إغمائها وأخفت الثعبان، انقضت الأيام، و ولد لها ولد. وعندما كبر قليلا أوصته يوما أن يطلب منها زيارة خاله بحضور أبيه. في المساء قال الطفل لأمه :

ـ أريد أن أزور خالي.

ـ وهل لك أخوالا لتزورهم ؟!
ـ أريد أن أرى خالي !
فقال زوجها :
ـ رافقيه ليرى خاله.
أخذت الثعبان في قربة، وصاحبت ابنها، واتجهت إلى دار أخيها.
في الطريق أوصت ابنها عدة مرات :
ـ عندما نكون في بيت خالك، اطلب مني أن أقص عليك حكاية، ولا تنس.
وصلت دار أخيها ووقفت بالباب :
ـ أتستضيفونني لوجه الله !
وعرفتها الكنّة، فرفضت أن تدخلها الدار.
انتظرت أخاها حتى وصل وقالت له :
ـ أتبيتون ضيف الله !
وقال لها دون أن ينتبه لها، لأنه لم يعرفها :
ـ تعالي، ادخلي. ودخلت بحمولتها.
بعد العشاء نغزت ابنها. فأخذ يبكي ويطلب من أمّه أن تقص عليه حكاية.
ـ إيه ! يا بني. أمّك نفسها حكاية، من الرأس إلى القدم !
بدأت الحكاية، مع فكّ رباط القربة لتخرج الثعبان بالتدريج :
ـ آه ! لو تعلم ما وقع لأمّك يا بني ! فررت مع أمّي، ووقعنا في شجرة الوحوش، وأكلت أمي. أخرجوا منها أخي، وهربت به وحيدة. وشقيت لأربيه وأكبّره..
وهي تقص ما وقع لها مرحلة فمرحلة، وتخرج الثعبان كان أخوها وزوجته يسيخان في أرضية البيت التي بدأت في بلعهما.

وتستمر في القص وهما يغوصان..

ومع انتهاء الحكاية وإخراج الثعبان، كانا قد دخلا تحت الأرض، ولم يبق إلا رأساهما فوقها فصاح أخوها :

ـ أتوسل إليك يا أختي العزيزة، عفوك ! اغفري لي !

أخرجت أخاها، وقرعت رأس زوجته بالهراوة.

الحطّاب والغيلان

أماشهو !

عن أخوين، أحدهما غنيّ والآخر فقير. كان الغنيّ يتجنّب أخاه الفقير، ويسخر من حاله، ويتّهمه بالعجز وقلّة الجرأة وهو بخيل.

الفقير، طيّب القلب لم يسعفه الحظ في تحسين حاله، ولم تصادفه مناسبة ملائمة للخروج من وضعه، فكان يحتطب من الغابة ويبيع. وكان قنوعا بما لديه، لا يحسد الناس في رزقهم، ولا يلوم غيره إن لم يساعده. يعتني بأسرته على قدر استطاعته، شاكرا الله، صابرا على المشقة.

رأى في المنام يوما أنّه عثر في الغابة على حطب جيّد جميل ومتين باعه بثمن غال. وصدّق حلمه. أخذ أدواته ودخل الغابة بحثا عن الحطب الذي ظهر له في رؤياه.

ـ توغّل في الغابة صاعدا باتجاه الجبل كاد يصل إلى قمته ولم يجد ذلك الخشب، فجلس يستريح من المشي وقد كلّت رجلاه والنهار قد انتصف ولم يعثر على ما تمناه. اتكأ على جذع شجرة يفكّر ويتّهم نفسه بالغباوة لتصديقه حلما بهذا الشكل وقد ضاعت

منه الصبيحة، لم يحتطب ولم يبع شيئا.

تحرّك للقيام والرجوع إلى أقرب مكان من الدار للاحتطاب كالعادة، فإذا بصوت خشن يصل أذنيه ويقشعر له بدنه فجمد مكانه وأطل برأسه من خلف الشجرة العريضة ينظر إلى مصدره. بعد لحظات رأى أمام مرتفع من الأرض لفيفا من الشجر يرتجّ وتخرج من بينها ركب ضخمة. تتبّع الأرجل ليرى أجسادا غير عادية وأشكالا مخيفة. تعوّذ بالله والتصق بجذع الشجرة. ولم يطل ثانية حتى انقطعت الأصوات كلّية واختفت الأجساد.

خرج من مخبئه، واتجه بحذر إلى المرتفع، وهو جزء من الجبل العالي. اجتاز الدغل الملتف الشجر ووجد نفسه أمام مدخل مغارة مظلمة. ولج رواقها، وبعد مسافة قصيرة رأى ضوء عن بعد، اقترب منه فوجد ساحة واسعة داخل المغارة الكبيرة، في جانب منها سبع جفنات كسكسي عظيمة، وسبع قطع لحم ضخمة، وسبع ملاعق كبيرة.

قطع رواقا آخر قصيرا، ليجد أكواما من الحجارة الكريمة وقطعا مختلفة الأشكال والأنواع من الذهب والفضة، وحليّا مصنوعة، وأواني مرصعة ثمينة. اندهش مما يرى :

(يا إلهي ! ما أعظمه من كنز ! إنّها أموال لا تنفد ولو صرفت منها بالآلاف يوميا!).

اقترب من الأكوام، تلمّسها بيده ليتأكد أنّها حقيقيّة وليست حلما آخر ! دفعته رغبة إلى ملء جيوبه، وكذلك الكيس الذي جاء به لوقاية كتفه من حزمة الحطب. تقدّم، فأحسّ بصوت ينطلق من داخله، يؤنبه ويحذّره، إنّها أموال الغير، وليست أمواله ! فتراجع. وتذكّر الأجساد الضخمة. سوّى الأماكن التي لمسها وأسرع بالخروج من المغارة. وما كاد يبتعد عن المدخل، حتّى سمع صوت أصحاب المغارة. انحنى بجسمه بين الشجيرات، وتسلّل وراء شجرة

ينتظر دخولهم.

ظلّ حائرا في أمره، أيعود إلى بيته بلا حطب ولا نقود ؟! أم ينتظر فرصة خروجهم ثانية للدخول إلى الكنز ؟! ثمّ من يكون هؤلاء ؟! وبعد التمعّن في صورهم، وتذكر شكلهم وصوتهم عرف أنّهم أغوال تلك الغابة ! ويجب أن يتعامل معهم بذكاء وفطنة، وإلا عرّض نفسه وأسرته للهلاك.

وبعد التدبّر في الأمر، والتفكير العميق، قرّر الانتظار، والدخول إلى المغارة. وصمّم مع نفسه ألا يأخذ كثيرا من مالهم، لكي لا يتفطنوا لأمره، ولأنّه لا يحتاج إلى تلك الثروة كلّها. كما أنه لن يستطيع حملها كلّها دفعة واحدة، ولن يكون في مأمن إن كانت في بيته. وأخذ كمية صغيرة، تكفيه للخروج من فقره، ولا يشعر بها الأغوال.

انقضت فترة طويلة في نظره، وبعد العصر بقليل، وقد يئس من خروجهم، سمع لغطهم ورآهم يخرجون في شكل آخر ومعهم أدوات للصيد !

دخل إلى المغارة، واتجه إلى الكنز يلقط حبّات من هنا وقطعا من هناك ويعدّل الكومة.

دخل داره والانفعال لم يبرحه، والفرحة تغني في أوصاله، وترقّص قلبه. لقد انتهت بالنسبة له سنوات الشقاء، ومات فقره. قصّ على زوجته ما حدث، فكان سرورها بلا نهاية. ثمّ حذّرها من الانفلات بكلمة عمّا وقع، وإلا ضاع عنهم كلّ شيء. والزوجة لا يمكن أن تبوح بسرهم، فالعودة إلى حالتها القديمة ترعبها.

في اليوم الموالي، قصد الرجل مغارة الأغوال، اقترب من مدخلها في حذر وسمعهم يلغطون داخلها. ابتعد عن المدخل وانتظر خروجهم.

دخل المغارة. طاف حول القصعات، يأكل ملعقة واحدة من كل

منها ويسوّي الثقب.

ويسلخ كمية من كل قطعة لحم ثم يعيدها إلى مكانها. وكان ذلك كافيا ليشعر بالشبع التام. ودنا من الكنز، يأخذ من كل كومة قليلا من محتواها ويعدّل الكومة.

وكانت تلك طريقته مدّة من الزمن فاجتمعت عنده ثروة هامة. الزوجة تتملى فيها يوميا فخورة، مسرورة، وأرادت أن تطّلع على مقدار ما عندها فأرسلت ابنتها إلى زوجة حميها (أخو زوجها) تطلب مكيالا. وأحضرته كالت به وأعادته.

وبعد بضعة أيام، أرسلت ابنتها تطلب المكيال ثانية. فاستغربت المرأة ذلك (ماذا يمكن أن تكيل هذه المتسولة ؟! لا تملك قمحا ولا شعيرا ! لابد أن أعرف ما عندها). ووضعت في القاع قليلا من الغراء وسلّمتها المكيال.

وظلت تراقب إعادته على أحرّ من الجمر. ولمّا تسلّمته، وجدت فيه قطعة ذهب صغيرة، التصقت بالغراء. عند ذلك غلا الحسد في قلبها. وأمرت زوجها بالعمل مثل أخيه وأن يأتيها بالذهب.

قصد زوجها أخاه، وهو الذي لم يزره في بيته قط. استغرب الأخ زيارته، وسأله

ـ ما الذي حملك على الحضور إلي ؟! خيرا إن شاء الله !

ـ أصارت زيارة الإخوة عيبا ؟! أنت أخي ولابد أن أسأل عنك لأعرف أخبارك !

ـ مرحبا بك في داري، ولكن غيابك الطويل عنّي، جعلني أتصور أن حدثا خطيرا دفعك إلى زيارتي في هذه الساعة من الليل !

ـ كلا. لم يقع أي حدث خطير، وإنما جئتك للحديث والاتفاق معك على أمر هام !

ـ ما هو هذا الأمر الهام ؟!

ـ أرجو منك أن تصارحني ولا تكذب ! أعلم أنك وجدت طريقة

للحصول على الذهب ! وأنا أخوك، فأرجو أن تدلّني عليها لأكون مثلك !

ـ ولكن أنت غنيّ، ولست في حاجة إلى مزيد من المال !

ـ أبدا يا أخي، أنا لست غنيا بالصورة التي تعتقد، فالناس تضخّم المسائل بلا معرفة حقيقية لوضعي، والمال لا يكثر أبدا أيّا كان المقدار الذي نملكه، فكلّما ضخمت ثروتنا كانت أفضل وأريح !

وحاول الرجل التهرب من البوح بسره، والتأكيد على أنه لا يملك المال الذي يدعيه، وأنه لم يجد الذهب الذي يتحدث عنه. ولكن أخاه أصرّ على الأمر. وفي الأخير كشف عن طريقة للاطلاعه على سرّه. ولم يجد بدا من مسايرة أخيه في طلبه. وقال :

ـ يا أخي، أنت عزيز عليّ، وهذا الأمر خطير جدّا، أنت لست قادرا على احتماله !

ـ الآن أنت تشتمني! وهل أنا عاجز ؟! كيف تقدر أنت على أمر أنا لا أستطيع النهوض به ؟! أنا قادر على كل فعل تأتيه أنت ! ولا تنس أنّني سبقتك إلى الغنى، فأنا أدرى بطريقة التعامل مع المال !

ووافق على مرافقته على أن يفعل مثله بالضبط. قبل أخوه ما طلبه منه. واتفق معه على موعد للذهاب إلى الجبل.

دخل معه إلى المغارة. بدأ الرجل في الطواف حول الجفنات كالعادة، يأكل ملعقة ويسوي الثقب، يقتطع جزءا صغيرا من كل قطعة لحم ويعيدها إلى مكانها. أمّا أخوه فلم يتحكم في اندفاعه، وأخذ يأكل من القصعة دون توقّف، وأخذ قطعة من اللحم يلتهمها التهاما. فحذّره أخوه وطلب منه الاحتياط للأمر لكي لا يشعر الغيلان بما وقع، ولكنّه لم يسمع تحذيراته. ولم يتوقّف عن الأكل حتّى سمع أخاه يقول له بصوت حاد :

ـ كفى يا أخي ! لقد أضعت منّا وقتا ثمينا ولم نأخذ شيئا من الكنز !

وحين سمع كلمة الكنز نهض ومشى وراءه. أطلّ عليه، وكاد يغمى عليه من الدهشة والفرحة (يا إلهي ! ما هذا الخير كلّه ؟!).

ـ خذ كمية قليلة منه، لننصرف قبل عودتهم. افعل مثلي.

ولكنّ الجشع أعمى بصيرته، ولم يعد يسمع أخاه، ولم يعد يفكّر إلا في أخذ ما استطاع من الذهب والجواهر الثمينة. ووقع على الكومات، يجمع في كيس دون توقف.

أخذ أخوه الكمية التي تعوّد عليها وأمر أخاه بالاكتفاء بالقليل وسيعودان مرة أخرى. ولم يستمع لكلامه فأمره بحدة :

ـ هيا يا أخي كفاك ما جمعته ! عدّل الكومات، ولننصرف، لقد حان وقت عودتهم.

ـ لم أجمع ما أريد، انتظر قليلا !

ـ لا يمكن البقاء هنا أكثر من هذه المدة، إذا عثروا علينا يقتلوننا ! تعالى !

لم يتحرّك من مكانه. وبلغ سمعه صوتهم وانفلت خارج المغارة بخفة.

دخل الغيلان. ووجدوا آثار الأكل في الطعام وغياب قطعة اللحم، واشتموا رائحة إنسان داخل المغارة. قال أحدهم :

ـ دارنا عامرة، إذا عمرها الله !

ووصلوا إلى الكنز، ولاحظوا نقصان كمية كبيرة. وكيسا مملوءا على الأرضية.

ـ ابحثوا عن الفاعل، مازال هنا، أنا أشمّ رائحته في المكان !

لما سمع الأخ صوتهم، وهم يدخلون إلى المغارة، أرعبه الخوف

وترك كل شيء مكانه ليبحث عن مكان يختفي فيه، ووجد في ساحة صغيرة وراء مكان وجود الكنز جثثا فتمدّد بينها متصنّعا الموت.

لم يعثروا عليه في بداية بحثهم ثم قال أحدهم :

ـ أعطوني سفّودا حارقا لأبحث عنه وسط الأموات.

ـ أخذ السفّود، وشرع يغرزه في أفخاذ الجثث وأطلق الرجل صيحة حادة حين شعر باختراق السفود الأحمر من النار فخذه، فرفعه الغول كمن يرفع خشبة خفيفة وصاح الغيلان فرحا وغضبا. ومزقوه شرّ تمزيق وعلّقوا رئتيه وكبده على خشبة بالجدار.

كان أخوه خارج المغارة يرتجف خوفا على أخيه. وظل ينتظر خروج الغيلان ليدخل لعله مازال حيّا.

لما خرجوا، أسرع إلى داخل المغارة فعثر على الرئتين والكبد. بكى أخاه بكاء مرّا، ولكن لا حيلة له فيما وقع.

أخذ ما بقي من أخيه ليدفنه، ورجع إلى الدار باكيا. وأثناء مشيه كان الدّم يقطر من الكبد على الطريق. وتبعه طائر، غطى القطرات وراءه إلى أن لحق به. قال العصفور :

ـ أعطني قطعة، أخفي قطرة !

التفت الرجل إليه، وقال غاضبا :

ـ ابتعد عنّي ! كيف تجرؤ على طلب كهذا ؟! كيف أسمح لنفسي بقطع كبد أخي لأطعم طائرا أحمق ؟!

يستمر الطائر في إخفاء الدّم، قائلا

ـ أعطني قطعة أخفي قطرة !

ـ ابتعد عنّي ! وقد حذّرتك !

يمشي، والطائر يخفي الدّم، ويكرّر طلبه. فقال الرجل وهو ينظر إليه شزرا :

ـ لقد أنذرتك ! إما أن تبتعد وإما أشوي لحمك اليوم !

رجع الطائر وكشف قطرات الدم التي أخفاها كلّها.

لما دخل الأغوال كهفهم، لاحظوا اختفاء بقايا الرجل الذي أكلوه.

ـ يظهر أنّه لم يكن وحده. وقد اكتشفوا مقرّنا، واطّلعوا على كنزنا. لابد أن نلاحق الذين كانوا معه لنقضي عليهم.

خرج أحدهم ودقّق النظر في الأثر وعاد

ـ إنّه شخص واحد، وحيث مرّ ترك قطرات الدم تبيّن مسلكه.

ـ علينا أن نلاحقه. فلنحضّر أنفسنا للرحيل إليه.

وظل الأخ حزينا يومه كله.

مع اقتراب المغرب دق باب داره وخرج ليرى الطارق. وجد أمامه سبعة رجال غرباء عن القرية يحملون قربا وقال أحدهم :

ـ أتقبلون ضيوف الله بداركم ؟! نحن تجار الزيت، ونزل علينا الليل في هذه القرية ولا نعرف فيها أحدا.

ـ مرحبا بالضيوف، تقضون الليلة معنا وغدا إن شاء الله يتّضح لكم الطريق.

وأدخلهم كوخا صغيرا مقابلا لداره. وطلبوا منه أن يحتفظ بقرب الزيت معه في داره الكبيرة إلى الصباح فوافق الرجل.

دخل معهم إلى الكوخ يسامرهم بعد أن ذبح خروفا وسلخه. ولم يعرفهم لأنّهم غيّروا مظهرهم.

المرأة، وقد ظنت أن القرب تحتوي على الزيت فعلا أخذت إبرة وثقبت إحدى القرب ليسيل منها بعض الزيت وتضعه في شعرها.

لما غرزت الإبرة فيها، سمعت صوتا

ـ أناموا، ونخرج لأكلهم ؟!

فزعت المرأة، ولم تصدّق ما سمعت. أعادت الكرّة، وتكرّر القول

ـ أناموا، ونخرج لأكلهم ؟!

فأدركت أن القرب فيها غيلان صغار. نادت على زوجها، فأقبل إليها. وأخبرته بما حدث. تعجب من الأمر في البداية، ثم تفطن للقضية. طلب من زوجته تحضير عشاء دسم دون أن تثير انتباه الضيوف وعاد إليهم

ـ الزوجة أصرّت على إكرامكم بعشاء جيد، وأعتقد أنكم ستحتاجون إلى قربكم لتستعملوا الزيت على هواكم !

وافقوا على اقتراحه، وحملوا القرب إلى الكوخ، حمل الرجل عشاءهم، وكانت قصعة عريضة، عليها قطع لحم كبيرة.

أغلق الباب عليهم قائلا :

ـ أرجو منكم العفو ! أولادي يتحركون كثيرا، وبإغلاق الباب لن يزعجوكم ! فكلوا على مهلكم، حين ينتهي العشاء أحضر للسمر معكم. وأنا كذلك جائع، يجب أن أتعشى!

قهقهوا لكلامه الأخير. وشرعوا في الأكل.

أسرع الرجل، بعد إحكام غلق الباب، وأشعل النار في الكوخ. ولم ينج منهم إلا أحد الصغار الذي قفز من نافذة الكوخ. وأرادت زوجته القضاء عليه. فقال لها الرجل

ـ دعيه، إنّه صغير. سنربيه ويصير مثلنا.

اهتما بتربيته حتّى كبر قليلا، وصار يتكلّم بطلاقة. حمله الرجل على كتفيه ليتجوّل معه. وفي الطريق قال الولد :

ـ ما أجمل أذنيك يا أبي ! إنّهما حمراوين شهيّتين، وددت لو آكلهما !

اندهش الرجل مما سمع. وأخذ الطفل من رجله، ولوّح به في الهواء، ثم ضرب به صخرة قائلا :

ـ يا بذرة الغيلان ! أبهذا تكافئني ؟!

و قضى على آخر غول بقي من المجموعة.

الفستان الرّاقص

أماشهو !

عن رجل له ثلاثة أولاد وبنت، للأولاد مميزات خاصة، أحدهم قادر على خطف البيض من تحت حجلة تحضنه دون أن تشعر. والآخر له القدرة على سماع مشي النمل. والآخر له القدرة على اختراق الأرض.

والبنت مدللة، يعزّها أبوها كثيرا فهي وحيدته بين الذكور. في يوم من الأيام، وقد اقترب العيد، طلبت من أبيها أن يشتري لها قندورة لم تخترقها إبرة ! وترقص بنفسها! وعدها الأب بتلبية طلبها.

قصد السوق، وبحث عن القندورة العجيبة، وكان يسأل في كل دكان يدخله :

ـ هل لديك قندورة ترقص وحدها، ولم تخترقها إبرة ؟!

ويجيبه مندهشا من الطلب :

ـ لم أسمع بوجود مثل هذا الثوب ولم أره !

ـ طاف بالسوق كلّه وزار الدكاكين كلّها وكان الجواب واحدا : ليس عندي مثل هذا اللباس!

فجلس على مدخل المدينة محتارا، كيف يعود إلى المنزل ولم يلب رغبة ابنته ؟!

وقف عنده أحدهم سائلا :

ـ ماذا يحيّرك يا رجل ؟! أنا أملك الحلول للمشاكل كلّها !

ـ مشكلتي ليس لها حل !

ـ أعرضها عليّ لنرى !

ـ أبحث عن قندورة لم تخطها إبرة، وترقص وحدها !

ـ هذا طلب سهل! وأستطيع تحقيق أمنيتك.

ـ ماذا ؟! وهل تملك هذا الثوب ؟! بع لي قندورة من هذا النوع، واطلب فيها ما شئت من المال !

ـ تعال معي إلى داري لتراها، ثمّ نتحدث في الثمن.

سار خلفه. يمشي البائع وهو وراءه يمشي ويمشي حتى تعب :

ـ أمازال منزلك بعيدا !

ـ لا تقلق وصلنا إليه.

ودخلا في وادي، لم ير الرجل الدار حتى وجد نفسه داخل أرضيتها، أراه الفستان. وتعجب الرجل من شكله وجماله ! أمسكه من فقرته ورآه يرقص.

ـ بارك الله فيك، هذا هو الثوب الذي أريده ! بكم تبيعه ؟

ـ أنا لا أبيعه بالدراهم !

ـ وماذا تطلب مني مقابلا له ؟!

ـ أريد صاحبته !

اضطرب الأب، وهل يعقل أن يقبل تزويج ابنته مقابل فستانها ؟! ولكنّه إذا رفض يعود إليها فارغ اليدين ؟! وهو لا يستطيع رفض طلبها، ولايستطيع الاعتراف بعجزه عن تلبيته !

ـ موافق.

ـ سأحضر إليك في يوم ممطر. فانتظرني.

فرحت الفتاة بالفستان. وبدت أجمل فتاة في القرية. وانشرحت الأسرة.

ـ انتهى العيد.

وبعد بضعة أيام، هطلت الأمطار بغزارة وسمعوا صهيل حصان أمام باب دارهم. خرج الأب ليطرده فرفض الذهاب. وخرجت الأم والأولاد ولم يتحرك. عند ذلك تذكّر الأب وعد الرجل الغريب فقال لابنته :

ـ حاولي أنت لعله يطيعك !

خرجت لتطرده خطفها ورحل.

انتظرت الأسرة ولم تعد. خرج الأبناء ليعرفوا سبب تأخرها، فلم يجدوا الحصان ولا أختهم. عادوا إلى البيت وسألوا أباهم :

ـ ما الذي يحدث يا أبانا ؟!

ـ إنّه الرجل الغريب ! لقد أخذها بائع الفستان ! وهي ثمن القندورة !

قصّ عليهم كل شيء، وأخبرهم بشرط بيع الفستان فقال الإخوة :

ـ لا يمكن أن نرضى بخطف أختنا ونحن أحياء !

وقصدوا الوادي الذي ذكره أبوهم ولم يروا الدار قال أحدهم :

ـ يا سمّاع، اسمع أين هي هذه الدار ؟! وضع أذنه على الأرض :

ـ إنّها على بعد أمتار، أسمع صوت أختي، وصوتا غريبا معها !

ـ ننتظر حتى يقترب الفجر، ويكون الرجل نائما نسترد أختنا وننصرف.

ظلوا هناك حتى أشرف الليل على الانتهاء فقال أحدهم :

ـ يا حفار احفر !

واخترق الأرض.

ـ يا سمّاع اسمع !

ـ نحن تحت الدار بالضبط.

فثقب الحفار الأرض وخرجوا في أرضية البيت. ورأوا أختهم بجانب غول وعليها ذراعه.

ـ يا شاطر اسحب أختك

سحبها دون أن يتحرك الغول وعادوا بها. وهم يمشون في الطريق قال أحدهم

ـ يا سمّاع اسمع.

ـ لقد استيقظ !

وأسرعوا في السير.

ـ يا سمّاع اسمع

ـ انتهى من تفتيش الدار، وهو الآن يطوف حول الحارة

استمروا في السير مسرعين.

ـ يا سمّاع اسمع

ـ لقد انطلق في أثرنا !

وازدادوا سرعة. وقد ظهرت لهم القرية قال السمّاع :

ـ إنّه يقترب !

بعد مسافة أخرى، والقرية قريبة منهم قال السمّاع :

ـ كاد يصل إلينا !

اقتربوا من المنزل وقال الشاطر :

ـ يا حفار احفر

دخلوا تحت الأرض، وأتموا طريقهم، حتى خرجوا في أرضية البيت.

فرح الوالدان برؤية ابنتهما، وانطلقت الفتاة تصف الغول :

ـ أيا أمي ! شعره كالحبال !

وأعاد قولها صوت جهوري خشن من خارج الباب

ـ أيا أمي، شعره كالحبال !

قفز أحد الإخوة، واقترب من الباب ومعه فأس قاطعة وانتظر دخول الغول.

ـ استمرت الفتاة :

ـ أيا أمي ! ذراعاه كالعارضتين!

والغول يعيد قولها بصوت مرتفع وتقول البنت

ـ أيا أمي ! أسنانه كمشط المنسج !

وأعاد الغول قولها :

ـ أيا أمي، أسنانه كالمشط ثم ضرب الغول الباب فتحطم أطرافا، وهجم عليهم، فوقعت على رأسه ضربة فأس قويّة وشطرته فصاح الغول :

ـ زد واحدة !

والفتى يعلم أن الضربة الثانية تحييه ولا تقتله فقال له :

ـ هز رأسك !

ـ زد واحدة !

ـ هز رأسك !

هزّ رأسه صائحا بدويّ ارتعد له كل ما في البيت من عباد وأواني وانفلق نصفين.

عليّ الثعبان

أماشهو !

عن امرأة لها ولد من زواجها الأول. ثم تزوّجت ثعبانا وأنجبت مولودا سمّته «عليًّا»، (عليّ الثعبان).

نشأ الأخوان معا، ترسخت الأخوّة بينهما وأحبّ الواحد منهما الآخر محبّة قوية. وكانا لا يفترقان النّهار كله. إلا أنّ أمّهما تفضّل عليّا عن الولد الآخر تفضيلا جليّا؛ في الأكل والملبس، تقدّم أحسن ما عندها لعلي، وتعطي الآخر ما يفضل، أو أردأ ما لديها من أكل.

ولكن عليّا كان يقتسم مع أخيه زاده كلّ يوم. وبلغ ملل الأمّ من ابنها الأول درجة المقت، وسعت للتخلص منه وقالت لزوجها يوما :

- يجب أن تقتل ربيبك هذا !
- كيف أقتله، وهو ابنك ؟!
- أنا أكرهه، وأريد التخلص منه !
- وبأية وسيلة أفعل ذلك ؟!
- حين يلعبون، تضع ثعبانا ساما في رأس برنوسه فيلدغه عند

ارتدائه.

ترقّب لحظة اشتداد حماس اللعب بكرة الفلين وفعل ما أمرته، وقبع الثعبان في البرنوس.

أنهى الأولاد اللعب فأسرع (عليّ الثعبان) إلى البرانس وأقسم

ـ (اجميع ليمان !) ما أخذ أحدكم برنوسه حتى أعطيه إيّاه.

وبدأ في توزيعها على الأولاد بعد نفضها إلى أن وصل إلى برنوس أخيه فسقط الثعبان منه وصاح عليّ :

ـ العصي يا أولاد ! العصي يا أولاد !

أحاطوا به يضربونه من كل جهة. قتل الثعبان، ولما وصلا إلى الدار قال لأمّه :

ـ الحمد لله الذي حفظ أخي من الهلاك ! كاد يموت اليوم ! وأنقذناه !

ـ ما الذي وقع يا عليّ ؟!

ـ دخل ثعبان قاتل في برنوس أخي، ولولا انتباهنا له، ووجود الأولاد لقتل أخي اليوم، ولكنّنا قتلناه. الحمد لله !

ـ ويحك ! ماذا فعلت ؟! الثعبان كان يحرس البرانس من السرقة بوصية من أبيك وأنتم قتلتموه! لقد ارتكبتم إثما، ولا حق لكم فيما فعلتموه !

قال الأب :

ـ نحن نوينا الإحسان إليكم، وأنتم أقدمتم على هذا الفعل الشنيع !

قالت الأم :

ـ عليك أن تصاحبني إلى جثته لأدفنه تقديرا له !

وعليّ يسمع كلامهما بتمعن، وأدرك أن طلب أمه لجثة الثعبان

يخفي مكيدة ما، فهي تريد أخذ رأسه لتسمّم به أخاه وأجابها بهدوء :

ـ غدا أرافقك يا أمي فلا تغضبي !

ورأى عليّ أن أمه لن تتخلى عن رغبتها في قتل أخيه.

في صباح اليوم الموالي أيقظ أخاه باكرا وشرح له الوضع مؤكدا له أنّه سيحميه من كل المكائد. اندهش الأخ مما اكتشفه.

ـ يا للمصائب ! اعذرني يا أخي، يجب أن أرحل عن هذه البلدة.

ـ أنت أخي، ولن أفرط فيك أبدا. وقد أكدت لك مودتي طول حياتنا، ابق معي.

ـ لا أستطيع البقاء بعد الذي حصل ! يجب أن أجرّب حظي في مكان آخر !

ـ كما تشاء، ولكن قبل ذهابك اغرس فسيل برتقال واسقه، ليخبرني عن حالك.

وفعل ما طلبه منه. لما حان الرحيل أوصاه :

ـ إيّاك والعيون الزرق يا أخي! لا تكن شريك أصحاب العيون الزرق أبدا ! فهمت !

وافق الأخ وانطلق في طريقه :

ينتقل من بلد إلى بلد وفي كل قرية التي يصل إليها يشتغل فيها مدة ثم يرحل عنها، إلى أن بلغ إحداها مساء. جلس في الجامع كما تعوّد. مرّ أحدهم به وقال له :

ـ أتقبل العمل عندي، يا هذا الغريب ؟!

نظر إليه فرأى عينيه زرقاوين

ـ لا يمكن ! أوصاني أخي أن لا أعمل عند أصحاب العيون الزرق !

تركه. لفّ حول المكان، وبعد فترة قصيرة رجع إليه :

ـ أترافقني للعمل عندي يا رجل ؟!

ـ لا أعمل عند صاحب العينين الزرقاوين.

ـ وما عسى أن تفعل ؟! أهل هذه الناحية كلّهم عيونهم زرقاء! ستبقى دون شغل.

صمت الرجل قليلا ثم قال :

ـ إذا كان الحال كذلك فليس لي خيار، أرافقك.

في صباح اليوم الموالي، حدد له عمله :

ـ تذهب للحرث، تحمل هذه العجوز على كاهلك وتعيدها على كاهلك. هذه الكلبة تذهب جائعة وتعود شبعانة، وهذا الرغيف تحمله كاملا وتعيده كاملا. الثوران يخرجان من الباب ويدخلان من طاق الدار. وتحمل كيس العصافير للأولاد.

خرج يحمل العجوز حتى الحقل، فأنهكه التعب فجلس يستريح قليلا، وقبل أن يبدأ العمل عزم على جمع العصافير وراح يجري وراءها للقبض عليها، وهي تطير من شجرة إلى أخرى حتى فقد قواه ووقع في هاوية ميّتا.

تفقّد عليّ الثعبان شجرة أخيه، ووجدها قد ذبلت ففهم أن مكروها وقع له.

شدّ رحاله واقتفى أثره إلى أن بلغ تلك القرية. جلس في الجامع إلى أن مرّ به الرجل ذاته وطلب منه العمل عنده، فالتفت إليه وقال في اشمئزاز :

ـ ابتعد عنّي، قبل أن تسمع ما لا يرضيك ! سيدك لا يشتغل عند صاحب العينين الزرقاوين ! ابتعد عنّي من فضلك !

ـ إيه ! للأسف ! وهذا ما قال لي أحدهم يوما، واشتغل عندي ومات في العمل رحمه الله !

فاعتدل عليّ وقال :

ـ في هذه الحالة يتغيّر الوضع ! أنا أقبل العمل معك.

في الصباح عرض عليه شروطه :

ـ العجوز تحملها على كتفيك وتعيدها على كتفيك، والكلبة تذهب جائعة وتعود شبعانة، وهذا الرغيف تحمله كاملا وتعيده كاملا، الثوران يخرجان من الباب ويدخلان من طاق الدار. وتحمل كيس العصافير للأولاد.

ـ أهذا كل ما لديك من مطالب ؟! إنّها مهمة سهلة جدا !

أخذ (علي الثعبان) طريقه إلى الحقل، وفور خروجه من المنزل التقط عمودا طويلا.

وراح يضرب العجوز على مؤخرتها وهو يصيح فيها :

ـ امشي يا عجوز جهنم ! امشي !

ولم يتوقف عن ضربها حتى وصل الحقل. جلس على صخرة وأخرج الرغيف، تناوله بهدوء حتى التهمه كله.

جرّ الكلبة إلى منبع وفتح لها فمها للعين ولم يتركها حتى ماتت.

استولى الرعب على العجوز مما تراه.

قال لها عليّ :

ـ الآن أجمع العصافير للأولاد ! ابقي هنا سأعود بعد لحظات، فالعصافير تقبل إليّ بصفير واحد !

ابتعد عنها لكي لا ترى ما يفعل. وأخذ يصفّر ويجمع ما وجده من الثعابين والعقارب. حتى ملأ الكيس، ربطه وعاد إلى العجوز.

عند العودة، طارد المرأة بالعصا حتى بلغت الدار. وقطع الثورين وقذف بهما من النافذة

ـ خذ يا عمي، خذ الثورين !

ـ ويحك ! ماذا فعلت بهما ؟!

ـ أنت من أمرني بإدخالهما من طاق الدار ! كيف يدخلان منه إذا لم أقطّعهما ؟!

دخل البيت، وسلم الكيس قائلا :

ـ ها هو كيس العصافير ! لقد تعبت كثيرا لملئه بشتى أصناف الطيور !

ودنا الرجل لفتحه، فصاح عليّ :

ـ حذار ! لا تفعل يا عمي، ستفلت الطيور كلها ! أدخل أيادي أولادك في الكيس، واربطه ليختاروا على هواهم !

أدخل الأولاد أياديهم وربطها مع فم الكيس. انتفض الأولاد يبكون من ألم اللسعات. وفي داخل الكيس اهتاجت الثعابين والعقارب فقال الرجل :

ـ ما هذه الحركة الكثيفة في الكيس ؟! ولماذا يبكي الأولاد ؟!

قال علي :

ـ إنّها العصافير تنط لتفلت من أيديهم ! وهم يبكون من الفرحة ! لقد احتاروا في اختيارهم ! كلها عصافير ممتازة لهذا يتشاجرون لأخذ أحسنها !

الأولاد ينتفضون ويقفزون ويملؤون البيت صياحا وبكاء، ثم سقطوا على الأرضية أمواتا.

فقال الرجل لزوجته :

ـ يجب أن نرحل من هنا ! هذا المخلوق يسعى لهلاكنا !

في الليل نهضت المرأة تحضّر زاد الرحيل، عجنت الفطائر، تطهو وترمي في كيس حتى امتلأ.

خرجا من الدار في صمت، والرجل يحمل الكيس.

وبعد مسافة قطعاها أحسّ الرجل بسائل ساخن يبلّل ظهره فقال

ـ ما الذي يسيل من الكيس يا امرأة ؟!

ـ إنّه الزيت يا رجل ! الفطائر امتلأت بالزيت فسال منها !

دخلا قرية. وجرى وراءهما الكلاب تنبح وتتقافز إلى الكيس، وسمع الرجل صوتا ينطلق من الكيس :

ـ آه يا عمي ! ارفع إلى أعلى !

ـ إلى أعلى يا عمي !

ـ يا للمصيبة ! ماذا تفعل هنا ؟! ماذا تفعل في الكيس ؟!

ـ أواه يا عمي ! لا يمكن أن أفارقكما ! وهل تنويان تركي وحدي هناك ؟! أنتما عزيزان على قلبي ولا أستطيع العيش بعيدا عنكما ! وأؤكد لك أن الفطائر رائعة !

رافقهما، وهما محتاران في كيفية الخلاص منه. وقال الرجل لزوجته :

ـ نستمر في السير حتى نصل إلى شاطئ البحر، وننام هناك. نجعله قرب الأمواج، تليه أنت وأنا وراءك. في الليل أطلب منك التقدّم وأنت تطلبين منه التقدّم حتى يسقط في البحر.

حين بلغوا البحر. قال الرجل :

ـ نقضي الليل هنا. ولكن نحن لا نحتمل برودة الأمواج لكبرنا، ونرجو منك أن تنام الأول وتليك العجوز ثم أنا !

ـ موافق يا عمي، لا تقلق فأنا أحبّ برودة الأمواج !

وانقضى شطر من الليل. قالت العجوز :

ـ تقدّم قليلا يا عليّ !

وابتعد عنها قليلا، ثم انسحب في صمت. واستمر الرجل يطلب

من العجوز تغيير مكانها،

وهي تطلب من عليّ ذلك حتى سمع الرجل صوت الارتطام في الماء. وقام قائلا :

ـ الحمد لله ! ارتحنا منه !

ـ آه يا عمي ! أنقذ العجوز إنّها تغرق !

التفت مذعورا :

ـ ماذا ؟! أمازلت هنا يا مصيبة المصائب ؟!

ـ أسرع إلى نجدتها، إنّها تطلب منك إنقاذها ! انظر كيف تمدّ إليك يديها !

ودنا من البحر لإسعاف زوجته فدفعه إليها وهو يقول :

ـ رحمك الله يا أخي، ها أنا قد انتقمت لك. ودفع الزوجان ثمن غطرستهما.

واستأنف عليّ الثعبان سيره.

دخل حقلا واستراح فيه قليلا فسمع صياحا :

ـ يا من هناك في حقل النخالة ! ارحل قبل أن أصل إليك ويكون عقابك شديدا !

تكرر التحذير، وأدرك عليّ أنّه المقصود بذلك ! فعزم على البقاء هناك حتى يصل الرجل. واقترب منه يلوح بعصاه وهو يقول :

ـ انتظر يا أخي، أنا راحل ! ما أنا إلا عابر سبيل، ولكن قبل الذهاب أريد أن أعرف لماذا تسمّيه (حقل النخالة) ؟!

هدأ الرجل وأجابه :

ـ إيه يا أخي ! أزرعه قمحا وأحصده قمحا وأدرسه قمحا، وفي الدار يصير قشورا ! وأزرعه شعيرا وأحصده وأدرسه وفي البيت يتحوّل إلى نخالة !

ـ أتقبلني عاملا عندك ؟!

ـ موافق.

ورافقه إلى بيته، تفحّص داره وزوجته. لمّا حضر العشاء تقدّم الرجلان للأكل وامتنعت المرأة فقال عليّ :

ـ لا تخجلي مني ! اعتبريني أخاك أو ابنك، اقتربي لتأكلي معنا !

ـ أنا لا آكل ! أنا أحيا بمح البيضة !

في اليوم الموالي اتّجها إلى العمل فقال عليّ للرجل :

ـ اسمع يا عم، إذا أردت أن تعرف لماذا يتحوّل ما تزرعه إلى قشور اتبع

كلامي عندما أقول لك : آه يا عمي نضجت، أنت ترد : آه يا ولدي احترقت !

ونعود إلى البيت. هل سمعتني يا عم ؟!

ـ موافق.

شرعا في الحرث، لما اقترب النهار من الانتصاف قال علي الثعبان :

ـ آه يا عمي نضجت !

ـ آه يا ولدي احترقت !

تركا كل شيء هناك وأسرعا في ركضهما إلى المنزل. استقبلتهما المرأة بدهشة :

ـ ماذا دهاكما، يا رجل وعامله ؟! اليوم عدتما باكرا !

قال عليّ :

ـ آه يا أمي لو رأيت ما وقع بنا ! سقط علينا برد في حجم الكسكسي الخشن الذي تحت القصعة!

ـ إيه.. أنا كذلك كنت على علم بذلك، لهذا حضّرته لكما !

فأخرجته وطفقا يلتهمانه في شره وقال عليّ :

ـ اقتربي يا أمي لتأكلي معنا.

ـ أنا يكفيني مح البيضة، لست بحاجة إلى هذا الطعام كله !

في الغد وهما في الحقل صاح عليّ :

ـ أه يا عم نضجت !

ـ آه يا ولدي احترقت !

وانطلقا يجريان إلى الدار فبادرتهما المرأة

ـ ماذا وقع لكما ؟! لماذا عدتما باكرا اليوم أيضا ؟!

وقال عليّ

ـ إيه يا أمي ! وقع علينا ثلج كالثريد الذي يوجد تحت القصعة !

ردّت عليه وغصة الحنق بادية عليها :

ـ أعلم، أعلم ! لهذا حضّرته لكما ! تربّعا حول القصعة.

ـ اقتربي لتأكلي معنا !

ـ لا، لا، لست بحاجة إلى ذلك الأكل كله ! يكفيني مح البيضة !

وفي اليوم الموالي أسرعا إلى المنزل في نفس الموعد، وكادت المرأة أن تصاب بالإغماء.

ـ ماذا أصابكما ؟! فلاحا آخر الزمن !

ـ إيه ! يا أمّي، لو تعلمين ؟! صادفنا ثعبانين يتصارعان أحدهما يقول : الحدّ من هنا !

ويدخل الملعقة في الكانون فيخرج بيضة، ويفعل الزوج مثله قائلا :

ـ والآخر يقول : الحدّ من هنا !

ويخرج بيضة أخرى، يكرّران القول ويدخلان الملعقتين في الكانون بالتناوب، حتى أخرجا ما فيه من بيض. وقالت

المرأة :

ـ كنت على علم، لهذا هيأت لكما هذا البيض !

أدرك عليّ الثعبان أن المرأة في أقصى درجة الغضب والحنق. عند العشاء قال لها

ـ أتعلمين يا أمّي أن (حارس الجامع) يستجيب للدعاء ؟!

ـ لا، يا ولدي ! وأنا ليس بي حاجة إلى أن أطلب منه شيئا.

ـ أجل يا أمي، يكفي أن تحملي له طبقا كبيرا من الكسكسي معه ديك جيّد الطهي، وما تطلبينه منه يحدث في الحين ! ولكن تسلمين القدح مغمضة العينين وتخرجين من عنده مغمضة العينين.

في اليوم الموالي. وهما في الحقل صاح :

ـ أيا عمي نضجت !

ـ أيا ولدي احترقت !

وقاد عليّ الرجل إلى الجامع، وبقيا في ركن ينتظران.

أقبلت المرأة حاملة إناء مملوءا بالكسكسي فوقه ديك شهي، ومدت يدها لتسلمه لحارس الجامع مغمضة العينين كما قال لها. استلمه منها عليّ ثم تراجعت وجلست خارج الباب تدعو :

ـ يا حارس هذا المكان، أعم الرجل وخادمه، لآكل ما يشتهي قلبي !

وهما يجيبانها بصوت خشن، وينشغلان بالتهام اللحم والكسكسي :

ـ آمين !

هي تعيد الدعاء وهما يعيدان طلب الاستجابة حتى أنهيا الطعام.

سلّم عليّ إليها الإناء وانصرفت إلى البيت فقال عليّ الثعبان

للرجل.

ـ غدا تصير مكفوفا في الصباح، وأنا أصير مكفوفا في المساء بعد عودتي من السوق.

استيقظ عليّ، واتجه إلى السوق. وعندما نهض الرجل، صاح

ـ ما هذا يا امرأة ؟! ألم يطلع النهار بعد ؟!

ـ ما بك يا رجل ؟! الشمس ساطعة، واقترب الزوال !

ـ لا يمكن ! فليس حولي إلا الظلام ! إذن كفّ بصري ! يا ويحي أنا أعمى ! كيف أعيش الآن ؟!

ـ كفاك سخرية يا رجل !

أخذت عمودا مشتعلا وقربته من وجهه فلم يتحرك.

ـ يا ويلي ! زوجي أعمى ! لا تتحرك من مكانك لكي لا يقع لك مكروه.

ابتعدت عنه وطفقت ترقص فرحا في صمت.

في المساء سمعت صياحا عند الباب.

ـ ساعدوني، ساعدوني ! لا أرى شيئا !

ـ ما بك أنت أيضا ؟!

وخرجت المرأة تجري.

ـ انطفأ بصري فجأة !

ـ ولا أرى شيئا !

ـ هات القفة وامشي ببطء متّكئا على كتفي. يا ويحي ! كيف أتصرف معكما الآن، وقد كفّ بصركما معا ؟!

أجلستهما قرب الكانون. طهت اللحم الذي أحضره من السوق ثم قالت :

ـ أنا ذاهبة لأرد الماء، سأعود بسرعة !

وقال عليّ :

ـ قرّبي منّي هراوة ما لأطرد كلبا أو قطا إن دنا من القصعة ليأكل اللحم !

وضعت في يده هراوة وخرجت. بعد هنيهة عادت ومعها رجل أجلسته بجانب القصعة. وفي لحظة انشغالها بإحضار الماء والملاعق للعشاء، لوح عليّ الثعبان بالهراوة وضرب الرجل بكل قوة فهوى على الأرض صريعا، انتبهت المرأة لذلك فصاحت :

ـ ويحك ماذا فعلت ؟!

ـ لا شيء يا أمي، أحسست بكلب اقترب من القصعة فدفعته بالعصا ليبتعد !

ـ لقد قتلت هذا المخلوق المسكين!

ـ قتلت رجلا ؟! ما الذي جاء به إلى هنا ؟!

ـ إنّه متسوّل مسكين جاء لتناول العشاء، أردت إطعامه صدقة، ربما شفيتما من المرض ! يا ويلي ! ماذا أفعل الآن ؟! كيف أخفي هذا الأمر ؟!

ـ لا تشغلي بالك، أعرف هاوية إذا رميته فيها لن يعثر عليه أحد قبل أن تأكله السباع !

ـ وكيف أجدها في هذا الظلام ؟!

ـ لا يمكن انتظار النهار احمليه وأنا أمسك طرف ثوبك وأريك الطريق !

حملته على كتفها وأخذوا طريق الهاوية. الزوج يمسك طرف ثوب عليّ الثعبان، الذي كان يمسك ثوب المرأة.

ومع أوّل منعرج سألت :

ـ هل وصلنا ؟

ـ مازال بعيدا.

يستمران في المشي، وهو يوجّهها، على اليمين ثم على اليسار.

وسألته من جديد : هل وصلنا ؟ وأجاب : اقتربنا! ولما اقتربت من حافة الهاوية قال :

ـ الآن وصلنا.

ـ أرميه هنا ؟!

ـ حذار ! يجب أن يقع في الهاوية وإلا سيعثر عليه الناس، اقتربي أكثر!

يطلب منها الدنو من الهاوية وهي تسأله إن بلغت المكان المطلوب حتى رأى إحدى قدميها على حافتها.

ـ توقفي، ثمة بالضبط، ارميه الآن.

تحرّكت لتقذف به، فدفعها وسقطت معه. استدار إلى الرجل وقال :

ـ ها أنت قد تخلّصت من مرضك الذي يجعل قمحك نخالة.

ـ بارك الله فيك، سنكون شريكين ناجحين.

ـ اعذرني يا صديقي، أنا لا أستطيع البقاء معك، في انتظاري طريق طويل. أقضي معك الليلة ثم أستمر في سيري.

وفي الصباح غادر القرية مستأنفا طريقه.

الحبّة الناطقة

أماشهو !

عن سبعة إخوة حبلت أمّهم، اجتمع الإخوة وتحدّثوا عن حمل أمهم فقال أحدهم :

ـ إذا ولدت أمّنا بنتا نرفع العصي للرقص والغناء، وإن ولدت ذكرا نرفع العصي للفرار من هذه البلدة !

واتفقوا على هذا الرأي، وسمعت زوجة عمّهم قرارهم. وضعت الأمّ حملها وكان بنتا. جرت زوجة عمهم لتخبرهم قائلة :

ـ ما أسعدكم ! أمّكم ولدت ذكرا آخر. فما أهنأه من بيت يعمره الرجال !

ـ فحزنوا ورحلوا تاركين البلد.

ولما كبرت البنت عيرها الناس :

(يا من نفيت إخوانك السبعة، وهرّبتهم من الدار !).

قصدت أمّها وسألتها :

ـ أحقّا كان لي سبعة إخوة ؟!

ـ صحيح يا ابنتي، ويوم ولدت فرّوا من البيت!

ـ اشتري لي الحبّة الناطقة وحصانا، أنا ذاهبة للبحث عنهم.

اشترت لها ما أرادت. اصطحبت خادمة وخرجت.
في الطريق قالت الأمة :
ـ انزلي لأركب.
فنادت أمّها :
ـ أمّاه !
فأجابتها :
ـ حذار !
سكتت الأمة. وبعد مسافة أخرى كررت الطلب، ونادت الفتاة أمّها مرة أخرى فرّدت عليها محذّرة.
واستمر الحال على ذلك حتى ابتعدتا وانقطع صوت أمّها، فكررت الأمة طلبها
ـ انزلي لأركب.
ـ أمّاه !
ـ حذار!
ردت الحبّة الناطقة من صدرها فأحجمت الأمة وسكتت، وبعد مسافة أخرى تكرّر الطلب والفتاة تنادي أمّها، وتردّ عليها الحبة الناطقة وتحجم الأمة وتسكت.
وصلتا إلى (ثالة)، وانحنت الفتاة لتغرف الماء وتشرب فسقطت الحبّة فيها دون أن تشعر. و استأنفتا الطريق.
طلبت الأمة منها النزول ونادت أمّها ولم يجبها أحد وكرّرت النداء ولا جواب !
واشتد إصرار الأمة وهدّدتها فنزلت. ركبت الأمة وهي تتبعها راجلة.
وصلتا إلى حيث إخوانها، وقدّمت الأمة نفسها على أنّها أختهم والأخرى أمتها ! اندهشوا من المنظر ! فالمظهر يبيّن أن الراجلة هي أختهم والراكبة أمة ! ولكن أختهم لا يصحّ أن تسير

راجلة ! والأمة راكبة !

رحّبوا بها وكلّفوا أختهم الحقيقية برعي الإبل، وبقيت الأمة في البيت.

وفي المرعى كانت تقف كل يوم على صخرة وتغنّي :

ـ ارتفعي يا صخرة ارتفعي.. لأرى أرض أمي وأبي. الأمة تركوها في البيت، والحرة جعلوها راعية الإبل.. ابكي معي يا إبل ابكي.

وتنتحب وتبكي معها الإبل. وفي كل يوم تعيد الأغنية نفسها وتبكي مع الإبل. فهزلت الإبل حزنا وقلة رعي.

وكان بين الإبل جمل أصم لا يسمع نداءها مواصلا رعيه بانتظام فسمن.

استغرب أكبر الإخوة وضع القطيع وتساءل (ماذا تفعل بهم هذه الراعية ليهزلوا بهذا الشكل ؟! يجب أن أطلع على الأمر). وتبعها خفية ليعرف السرّ.

في المرعى سمعها تنادي وتغنّي كالعادة ثم تقع باكية تنتحب، وتبكي معها الإبل.

عندئذ بدأ يقتنع بصحة ظنونه فيهما وقصد حكيما.

ـ أشر علي أيّها الحكيم، احترنا في أمر فتاتين لا ندري من منهما أختنا ؟! ومن منهما الأمة ؟!

ـ خذ أمعاء بقر وضعها على قرني الثور وصح : أماه ! لقد قتلني الثور. فالتي هي أختك ستقذف بنفسها لنجدتك دون تفكير، أما الأمة فلن تبالي. ومن منهما تأتيك بهدوء هي الأمة.

دخل الزريبة لربط الثورين ثم صاح :

ـ أماه ! قتلني الثور !

اندفعت أخته مسرعة إليه فقالت الأمة :

ـ إيه.. إيه ! وكأنّك أنت التي تشفقين عليه !

عاد إلى الحكيم وأخبره بما حدث فقال له :

ـ خذ الحناء لتخضب شعرهما. أختك ستنزع المنديل دون حرج أمّا الأمة، فستعترض، ولما تنزعه تجد شعرها أجعدا خشنا.

وفعل ذلك، أتى بالحناء وناداهم :

ـ اليوم سأخضب لكما شعركما ليكون أجمل.

تقدّمت الأخت ونزعت منديلها. وقالت الأمة

ـ أنا لا أعرّي رأسي أمام أخي العزيز! وأجبرها على نزعه واطلع على شعرها فتأكدوا من الحيلة وعرفوا أختهم.. عند ذلك سألوها :

ـ ماذا يشفي غليلك يا أختنا ؟!

ـ أن تربطها إلى سرج الحصان وتجرّها إلى الممات !

وبعدها. عادوا إلى منزلهم مع أختهم.

صاحب اللباس الأبيض

أماشهو !

عن أخوين من الأب. أحدهما من زواجه الأول، والثاني من زوجته التي مازالت معه. وهما متشابهان كأنهما توأمان، وتجمعهما أخوة قوية صادقة.

المرأة تكره ابن زوجها كثيرا. وكانت تهينه باستمرار، وتفصله عن ابنها في المأكل والملبس، ولا تعطيه إلا الرديء من الطعام، أو ما تبقي منه. ولكي تتعرف عليهما وضعت خيطا على شكل قرط في أذن ابن زوجها.

ولكنّ ابنها كان يقتسم زاده مع أخيه دائما. فحين يصلان إلى المرعى يرميان الطعام الرديء ويأكلان معا الطعام الجيّد.

ولما كبرا ضاق الشاب ذرعا بسلوك زوجة الأب معه.

وفي أحد الأيام، وهما في المرعى، أمسك الشاب قطعة الرغيف في يده، ينظر إليها بتمعّن وكانت مصنوعة من النخالة ثم اقترب من ثالة ونادى أخاه :

ـ تعال انظر يا أخي !

دنا منه

ـ أعطني قطعة من رغيفك

فأعطاه قطعة، وكان رغيف أخيه مصنوع من دقيق القمح، وأخذ قطعة من رغيفه وألقاهما في ثالة.

ـ أنظر يا أخي، قطعتك غاصت وقطعتي طفت على الماء ! ومثلها أنا أطفو فوق قلب أمك ! فلا مكان لي في هذا البيت، عليّ أن أرحل من هنا !

ـ لماذا ترحل يا أخي ؟! أنا أعزّك كثيرا، وأنت ترى أنني أتقاسم معك كل شيء !

ـ لم أعد أحتمل هذه الحياة وهذه المعاملة.

وحاول إقناعه بالعدول عن قراره، ولكنّه كان مصمّما فقال له أخوه :

ـ حسنا يا أخي، كما تشاء. قبل رحيلك نغرس فسيلين من البرتقال، إن ذبل أحدهما فتلك علامة على أن صاحبه قد تعرّض لمكروه.

فعلا ما اقترحه الأخ، ثم نزع القرط من أذنه وودعه ورحل.

وبعد مسافة طويلة مشاها، سمع نداء النجدة فاتجه إلى المكان ليجد راعي الغنم يصيح :

ـ النجدة ! أنقذوني من هذه الذئاب !

ورأى ثلاثة ذئاب تهاجم القطيع. فتصدى لها بسيفه وقتل واحدا وفر الآخران. شكره الراعي وقال له :

ـ خذ أية نعجة تشاء.

ـ حين أعود.

استمر في سيره، ووجد راعي الإبل يستنجد، بعد أن هجم على قطيعه نمر فجرى إلى نجدته وقتل النمر. قال الراعي

ـ اختر ناقة تعجبك وخذها.

ـ عند عودتي.

استأنف طريقه. وعثر على راعي البقر يستنجد لمساعدته على قتل أسد هاجم قطيعه. فقتله.

ـ خذ أحسن بقرة تريدها.

ـ لما أعود.

ومشى في طريقه حتى وصل ثالة قرية، شرب واغتسل ولجأ إلى شجرة قريبة يستريح تحتها. بعد مدة سمع لغطا وضجيجا فاختبأ.

شاهد قوما يحملون فتاة جميلة على حصان، وهي تلبس أفخر لباس ووراءها صف من الرجال والنساء وهم يتجهون إلى ثالة. استغرب مظهر هذا الموكب، فلا هم يغنون كموكب العروسة، ولا هم يبكون كالموكب الجنائزي!

وحين اقتربوا منه تبيّن في وجوهم حزنا دفينا ووجوما غريبا، وفي عيونهم خوف عظيم.

ورآهم يقتربون من ثالة ثم ينزلون الفتاة ويقيدونها إلى شجرة لصيقة بالمنبع. انصرفوا فارين من المكان.

حدّق في وجه الفتاة فرآه مرعوبا وهي ترتجف ولم يفهم السبب.

بعد هنيهة، سمع ماء ثالة يزبد وأتاه صوت رهيب ترتجف له أوصال أصلب الرجال. استل سيفه وتقدّم.

وخرجت من الماء أفعى ضخمة أطل رأسها وبضربة سيف خاطفة قطعه فقالت الأفعى

ـ اقطع إن أردت القطع ! فلدي رأس أخرى!

ـ ومازلت أقوى

وأخرجت رأسا أخرى، وهجمت عليه، قفز جانبا، وبضربة قوية قطعه.

ـ لدي رأس أخرى!

ـ ولدي قوة أخرى.

ودخل في قتال معها، حتى بلغ عدد رؤوسها سبعة، أتى عليها كلها فوقعت جثتها خارج ثالة. انتظر في حذر، ولم تتحرك، علم عندها أنّها ماتت نهائيا.

جرى إلى الفتاة وحرّرها.

ـ ما الذي يحدث ؟!

ـ لماذا قتلتها ؟! إنّها حارسة هذا النبع، وقد يجفّ بعد فعلك هذا ! ولن يجد سكان هذه القرية ماء يشربونه ! يا ويلي من تصرّفك !

ـ كيف تقولين هذا الكلام ؟! وأنا أنقذتك من الموت ؟!

ـ إنّها عادتنا ! كل عام نقدم فتاة لهذه الأفعى لتسمح لنا بأخذ الماء ! والآن، حكمت علينا بالموت عطشا !

ابتسم الرجل وخفّف من روعها.

ـ لا تقلقي أيّتها الجميلة فلن تعطشوا بعد اليوم ولن تضحّوا بفتيات القرية بعد اليوم، وسيسمح موتها بتدفق الماء بقوة أكثر مما مضى.

وبعد محادثتها فترة ارتاحت الفتاة وأخبرته أنّها ابنة السلطان. وأن اليوم جاء دورها لتقدّم للوحش.

ومازالا يتحدثان حتى سمعا لغطا قادما فقام وترك لها نعلا من نعليه ثم اختفى.

وصل القوم، اندهشوا مما رأوه، وفرحوا بنجاة الفتاة. رافقوها مسرعين إلى السلطان يبشرونه.

فرح السلطان بعودة ابنته سالمة، وبعث من يخبر السكان بقراره. فطاف بالقرية رسول السلطان وهو ينادي :

ـ سيدنا السلطان يطلب منكم الحضور إلى قصره، ليعرف قاتل الوحش، ويزوّجه ابنته.

فجرى الخلق يزدحمون أمام باب السلطان، وكل منهم يؤكد أنّه الفاعل !

ـ على هذا الشجاع أن يقترب.

وتدافع الرجال.

طلب منهم المرور أمامه بالدور، يجربون النعل إن كان على مقاس أحدهم فهو الفاعل.

ولكن الحذاء لم يلائم أحدا منهم! إما لصغره أو لكبره، وقال لوزيره :

ـ ألم يبق أحد في القرية ؟!

ـ لا أحد يا سيدي السلطان، غير عابر سبيل بقي بالجامع ولم يحضر.

ـ أحضره إليّ.

حضر الشاب، وأمره السلطان بارتداء الحذاء، وكان على مقاسه.

ـ نعم يا سيدي، أنا هو قاتل الوحش وها هو النعل الثاني.

فرح به وزوجه ابنته.

بعد بضعة أيّام رافقه السلطان ليعرّفه بالمملكة وينصحه.

ـ كل ما تراه عينك يدخل في مملكتي، اذهب حيث شئت، واصطد حيث أردت إلا تلك الغابة لا تقترب منها فليس لي عليها نفوذ !

أطاعه الرجل، ولم يحاول الاطلاع عمّا بالغابة.

في أحد الأيام، خرج للصيد ورمى أرنبا فانسل إلى تلك الغابة، وأسقط حجلة فوقعت في تلك الغابة. ودام الحال على ذلك مدة، كلّما قنص حيوانا فرّ إليها، فقرر دخولها يبحث عن صيده وتوغّل فيها.

التقته عجوز مرحبة :

ـ أهلا بابن أختي ! تعالى إلى بيتي تشرب شيئا وتأكل طعاما وتستريح قليلا!

ورافقها إلى دارها في منتصف الغابة. وألهته بالحديث حتى أقبل الليل فطلبت منه المبيت، ولم يجد بدا من الموافقة.

وبعد نومه قامت إلى حصانه وبلعته ثم بلعته بدوره.

تفقّد أخوه الشجرة فوجدها قد ذبلت. امتطى حصانه مرتديا مثل لباس أخيه واقتفى أثره.

مرّ على راعي النعاج فناداه

ـ يا صاحب اللباس الأبيض، تعالى تأخذ قطيعك وقد بلغ تسعا وتسعين رأسا !

ـ حين أعود.

وفهم أن أخاه مرّ من هناك. وصل إلى صاحب الإبل :

ـ يا صاحب اللباس الأبيض تعالى تأخذ إبلك، إنها بلغت تسعا وتسعين !

فعلم أنه على طريق أخيه. ومر بصاحب البقر :

ـ يا لابس البياض، تعالى تأخذ بقرك، لقد بلغت تسعة وتسعين !

ـ عند عودتي.

وتأكّد من سيره في الاتجاه الصحيح.

بلغ ثالة القرية وجلس يستريح عندها. بعد فترة جاء خدم الملك لورود الماء :

ـ آه يا سيدي ! لقد اشتدّ قلق السلطان عليك ! أين اختفيت هذه المدة كلّها ؟!

استغرب قولهم، وفهم أنّهم حسبوه أخاه، فاعتذر عن غيابه دون أن يستأذن الملك ورافقهم.

استقبلوه بسرور عميق، وعرف زوجة أخيه التي ظنّته

زوجها.

جالس الملك، محاولا فهم ما وقع لأخيه دون أن يفطن السلطان لغرضه.

ـ سيدي السلطان، هل حدث شيء جديد في غيّابي ؟!

ـ لا شيء جديد. المملكة كما كانت والغابة مازالت خارج نطاق حكمي.

ـ إيه ! كدت أنساها !

ـ احذر يا صهري ! لا تقترب منها كما أوصيتك ! ولا تنس هذا.

في الليل وضع بينه وبين زوجة أخيه سيفه. استغربت المرأة تصرّفه ولم تستفسر عن السبب.

في اليوم الموالي قصد الغابة مباشرة وهو متيّقن أنّها تخفي سرّ اختفاء أخيه. دخلها وتوغل فيها. فالتقته العجوز ورحّبت به :

ـ أهل بابن أختي ! تعالى إلى داري تشرب شيئا وتستريح ! فوافق وعرف أنّها غولة الغابة وأنها وراء

ـ اختفاء أخيه وبقي حذرا.

في الليل أرادت ربط حصانه فرفض معتذرا :

ـ لا يا أمي العجوز ! كيف تقومين بهذا العمل وأنا هنا ؟! استريحي، كما أن حصاني لا يقبل أن يقترب منه غريب !

وأوصى حصانه

ـ حين تقترب منك اضربها على جبهتها ضربة قوية. حذار أن ترفسها في موضع آخر!

حان وقت النوم، لكن الرجل لم يغمض له جفن. تمدّد فوق الفراش يقظا حذرا، يده على سيفه وينتظر ما يكون.

قامت الغولة إلى الحصان لأكله، وفور اقترابها منه رفسها بقوة على جبهتها فسقطت صريعة.

قفز الرجل إليها وأخرجها أمام الدار وبقر بطنها وأخرج أخاه وحصانه ومددهما أمامه يبكي.

خلال فترة قصيرة مرّت بقربه عظاءتان. ضربت إحداهما الأخرى فبترت ذيلها. قال الرجل :

ـ أه.. ! لماذا تفعلين بأختك ذلك ؟! أنا لا لوم عليّ، إن حدث هذا بأخي! ولكن أنت ما الذي يجبرك على هذا الفعل ؟!

ـ اهتم بحالك، وتدبّر همك! ولا تشغل نفسك بأمري، أنا قادرة على علاج مشكلتي، ضربتها هذه اليد وتجبرها هذه اليد !

جرت العظاية إلى الأعشاب وتبعها الرجل. وراح يقطف من كل نبتة أخذت منها العظاءة ثم عادت إلى أختها وهو يتبعها. رآها تسحق النباتات وتضعها على بقية ذيل الأخرى فنبت لها ذيل آخر مكان الأول.

وفعل مثلها. سحق الأعشاب نقعها في الماء وأشرب أخاه والحصان وبقي ينتظر.

استيقظ أخوه والحصان وتعانقا في شوق، وحمله إلى القصر. اعتنت به زوجته وأفهمها ما جرى وعلاقته بالرجل الآخر.

بعد بضعة أيام استعاد قوته وقصدا الملك.

قابلهما، واحتار فيمن هو صهره ؟! وبعد ممازحته هنيهة، كشف صهره الحقيقي عن نفسه. واستأذنه في العودة إلى بلاده مع زوجته. فأهدى له السلطان ناقة محمّلة بأثمن الجواهر.

سلكوا الطريق نفسها. مرّ على صاحب البقر وأخذ قطيعه، ثم على صاحب الإبل وأخذ قطيعه، وعلى صاحب الغنم وأخذ قطيعه.

ودخلوا القرية بثروة عملاقة.

هارون الرشيد

أماشهو !

عن سلطان، ولا سلطان إلا الله، أنه كان يمشي ساهيا وداس على رغيف فخرج له ملاك وصاح فيه :

ـ يا هارون الرشيد ! عليك أن تعيش سبع سنوات من الذّل ! فاختر، أتجتازها في شبابك أم في كبرك ؟!

ـ أقضيها في شبابي !

واختفى الملاك.

استأنف السلطان حياته وباله مشغول بهذه التجربة متى ستبدأ ؟!

وحدث يوما أن أخذ ناقته لتشرب في ثالة. ولّما انحنت انجذبت إليها وبدأت تغرق. جذب السلطان الحبل ولم يستطع إنقاذها، ودام الوضع هنيهة ثم انقطع الحبل وغاصت الناقة في ثالة.

وفهم أن السنوات المطلوبة منه قد بدأت. ترك القرية متجها إلى المجهول.

قصد راعيا وقال له :

ـ أتقبل أن تبادلني ثيابك بثيابي ؟!

واشتد بالراعي العجب، وهو ينظر بإعجاب إلى ثياب السلطان

الثمينة ورد مسرورا

ـ موافق !

ـ تعطيني ثيابك، مع كرش إحدى النعاج ومصارينها وأترك لك لحمها.

ـ أسرع الراعي إلى ذبح نعجة وأعطاه ما طلب.

انصرف هارون الرشيد بأسمال الراعي الرثّة وعلى رأسه كرش النعجة شاشية (طاقية) والمصران عمامة.

يمشي والذباب يلتفّ حول رأسه أسرابا، وأنواع الحشرات تطنّ حول أذنيه. قصد فلاحا يطلب العمل عنده فطرده. وقصد أصحاب الدكاكين فطاردوه بالهراوات.

كلما مر بقرية يلتفّ حوله الأطفال صائحين :

ـ امحند (بوثكرشت)!، امحند ذو الكرش !

يجرون خلفه راجمينه بالحصى. يتخلّى عنه الأطفال لتستلمه كلاب القرية ولا ينقذه إلا الفرار.

يستجدي ولا يعطف عليه إلا النادر من الناس برغيف أو فاكهة.

لا يقترب منه أحد بسبب الرائحة الكريهة التي تنبعث منه.

نام في الغابات والأحراش، يأكل البقل وما يعثر عليه من ثمار على الأشجار البرية، والمغروسة حتى أشرف على الهلاك.

قادته قدماه إلى قرية فدخلها متواريا بالجدران خائفا من الأطفال والكلاب، ووجد نفسه أمام دكان للفطائر، قليل الزبائن، يظهر عليه الفقر والحاجة، وعلى صاحبه التفكير المستديم والحسرة فقال له :

ـ أتقبلني عاملا عندك ؟!

نظر إليه، وسدّ أنفه

ـ ما اسمك ؟!

ـ امحند ذو الكرش !

ـ وكيف تريد مني أن أشغلك في حالتك ؟! ستهرّب عنّي القليل من الزبائن الباقين !

ـ لا تشغل بالك، لن يروني.

ـ طيب، أشغلك على شرط ألا تخرج من داخل المحل إطلاقا ! وعلى كل حال ليس لدي عامل، فالذي كان معي تركني لأنني لم أستطيع دفع أجرته. وأخبرك من الآن، أنّني لن أدفع لك أية أجرة.

ـ ليس بي حاجة إلى أجرة، المهمّ أن أجد مأوى وأكلا.

في الليل وهو بداخل المحل كان ينزع الكرش والمصران ويعجن الفطائر. وكانت نافذة ذلك المحل تطل على قصر سلطان تلك البلاد ، الذي له سبع بنات.

ومنذ اشتغاله في المحل ازداد عدد الزبائن، وأعجب الناس بالفطائر، وعمت شهرته البلاد ، حتى صارت الطلبات لا تلبى كلّها . وتغيّرت حالة المحل، وفرح صاحبه بالعامل الجديد أيّما فرح.

وخلال تلك الأيام، كانت ابنة السلطان تراقبه يعجن الفطائر من نافذة قصرها فأعجبت بوسامته، وأبهرها الضياء المنبعث من جبهته وقالت لأخواتها :

ـ ما قولكن في أن نطلب من أبينا أن يزوّجنا ؟!

وبضحكات رنّانة أجبن :

ـ موافقات !

فكّرن في طريقة ينبّهن أباهن إلى رغبتهن في الزواج. ووجدن الحل :

ـ حين يحضرون البطيخ لنأكله، نغرس فيه السكين ونعيده كاملا.

وفعلن ذلك مرة، ولم ينجحن في إثارة اهتمامه. وأعدن العملية. فقال السلطان لزوجته

ـ ماذا دهاهن هؤلاء البنات ؟! لماذا يفعلن هذا ؟!

ـ إنهن يرغبن في الزواج دون شك!

نادى السلطان على أعيان المدينة وأغنيائها يدعوهم إلى قصره. وعلموا أنّه يريد تزويج بناته. فحضروا في أجمل لباس وأحسن مظهر.

السلطان أعطى لكل بنت تفاحة، وعلى الرجال أن يمروا أمامهن وهن يخترن. وحين تعجب الواحدة بأحدهم تضربه بالتفاحة. وتلك علامة رضاها به.

اصطف الرجال، ومروا أمام البنات فاختارت كل منهن رجلا وقذفته بتفاحتها إلا أصغرهن لم ترض بأحد.

طلب السلطان من الأعيان المرور أمامها ثانية. فلم تتحرك، فقال لوزيره.

ـ أحضر رجال القرية كلّهم !

فجاؤوا يجرون. عرضهم عليها فلم تتحرك !

قال لوزيره

ـ ألم يبق أحد في المدينة ؟!

ـ لم يبق أحد، سوى عامل في دكان الفطائر، وهو مسكين لا يستأهل هذا المقام !

ـ أحضره إلى القصر!

أتوا به، وهم يمشون على بعد منه، والذباب يطوف حول رأسه، وحيث يحلّ تبتعد عنه الجموع. عرضه السلطان على الفتاة فقذفته بالتفاحة.

أصابت الكل دهشة عظيمة ! وغضب السلطان. ومنع عنه حضور مجلسه.

والفتاة صارت موضع السخرية والاستهزاء بين أخواتها وجعلنها أضحوكة وموضوع

تندر كما صارت معزولة.

حزنت الفتاة، وامحند أبو الكرش لا يستطيع أن يكشف لها

ولا لغيرها سره.

فالسنوات السبع لم تنته.

وفي أحد الأيام قال لها :

ـ قولي لأبيك أن يطلب من أصهاره : إن كانوا يحبّونه أن يأتوه بالماء الذي تتناطح عليه الجبال.

فقالت له. وجمعهم :

ـ من كان يحبني منكم، يحضر إليّ الماء الذي تتناطح عليه الجبال !

فوعدوه كلّهم بإحضاره. وانطلقوا بأحصنتهم يعدون متبخترين. ومروا بهارون الرشيد في الطريق راكبا حمارا والذباب لا يكفّ عن الطنطنة والتحليق فوق رأسه فدفعوه جانبا ساخرين منه :

ـ ابتعد عن طريقنا أيّها النتن! وهل مثلك قادر على منافستنا ؟!

فقال :

ـ أر.. أر.. إلى السوق نتسوق كلنا ونحن أصهار الملك كلنا ! سر يا حماري.. سر.. إلى السوق نتجه كلنا ونحن أصهار الملك كلنا ! سر.. سر..

وبعد أن ابتعدوا كثيرا، أدار الخاتم في إصبعه فطار به حصان من أمامه برق ومن خلفه ريح ليصل إلى مكان وجود الماء.

في كل سنة، وفي ذلك الوقت بالذات، تنفصل الجبال بعضها عن بعض لتترك منفذا إلى منبع في عمقها لحظة ثم تنغلق.

وكان على علم بتوقيته، دخل المنبع وملأ قربة صغيرة والتحمت الجبال وراءه بمجرد خروجه.

جاء إلى السوق متنكرا في لباس تاجر يعرض بضاعته صائحا :

ـ من يشتري الماء الذي تناطحت من أجله الجبال! من يشتري.. ؟! من يشتري ؟!

وقف عنده أصهار الملك.

ـ آه.. ها هو الذي نبحث عنه منذ فترة !

ـ بكم تبيع هذا الماء يا رجل ؟!

ـ أنا لا أبيع بالنقود يا سادتي !

ـ بم تقايضنا إذن ؟! نحن سندفع لك ما تريد !

ـ أريد قطعة من آذانكم !

استغربوا الطلب ! واجتمعوا للنظر في الأمر فقال أحدهم.

ـ وما العائق ؟! إنّنا لن نموت، وآذاننا تغطّيها العمائم ولن يفطن لذلك أحد.

ورضوا بالبيعة. وضع أجزاء الآذان في جرابه وسلّم إليهم القربة.

أخذوا الماء وعادوا والتقوا امحند ذا الكرش على حماره.

ـ ابتعد عن طريقنا أيّها النتن ! أسيادك تسوّقوا وعادوا بالماء وأنت مازلت تدفع أتانك هذه !

وقهقهوا مخلفينه في الطريق.

ـ بكت زوجته حزنا لأنّهم عادوا كلّهم بما طلبه الملك ولم يحصل هو على شيء.

والأيام تمرّ والسنوات تقترب من نهايتها. ومرّة قال لزوجته :

ـ قولي لأبيك يطلب من أصهاره أن يأتوه بلبن لبؤة في جلد ابنها

وقالت له فجمعهم :

ـ من يحبّني منكم يأتيني بحليب لبؤة في جلد ابنها.

وقالوا كلّهم :

ـ نحن لها، يا سيدنا الملك العزيز.

وانطلقوا بأحصنتهم البهية والتقوا بامحند أبو الكرش على حماره في الطريق والذباب يدور حوله :

ـ ابتعد أيّها النتن ! من العار أن تكون صهرا للملك !

ـ سر يا حماري، سر.. إلى السوق نتسوق كلّنا ! ونحن أصهار الملك كلنا ! سر ! سر !

اتجهوا إلى السوق واتجه إلى الغابة. سمع أشبالا يصيحون، اقترب من العرين ورآهم وحدهم وقد خرجت أمّهم إلى الصيد، وسبقها هو فحمل جديا وأعطاه للأشبال ثمّ اختفى ينتظر اللبؤة.

عادت دون صيد، وهذا لليوم الثالث ووجدت أبناءها يأكلون فقالت :

ـ لو أعلم من أطعمكم أعطيه ما يريد حتى لو طلب واحدا منكم !

ـ فخرج وقال :

ـ أنا الذي أطعمتهم.

ـ ماذا تريد مني ؟!

ـ أريد كمية من حليبك، وأحد أبنائك !

وسمحت له بأخذ الحليب من ضرعها ، وأعطته شبلا قائلة.

ـ خذه، وحذار ! إذا سمعت بكاءه آكلك وأهلك !

أخذه مع الحليب وانصرف، وبعيدا عنها قتل الشبل وأخذ جلده ودخل السوق متنكرا. وراح ينادي على بضاعته :

ـ من يشتري حليب اللبؤة في جلد ابنها ؟! من يشتري حليب اللبؤة ؟!

جاؤوا إليه.

ـ أنت الذي كنا نبحث عنه، يا حبيبنا ! بكم تبيع الحليب ؟!

ـ أنا لا أبيعه بالدراهم !

ـ وماذا تطلب بدله ؟!

ـ أريد أصابعكم الصغيرة !

وتشاوروا وقال أحدهم :

ـ لا يهم، فالقفازات تغطي أصابعنا.

جمع الأصابع في جرابه وأعطاهم الحليب.
عادوا ليجدوا في الطريق ذو الكرش على حماره.
ـ ابتعد أيها النتن ! الرجال عادوا بما يطلبه الملك !
حزنت زوجته. ومرت الأيام والأعوام تتناقص.
ويوما قال لزوجته :
ـ قولي لأبيك يطلب من أصهاره إحضار تفاح المذكور الذي قطع سبع بحور ! إذا أكله شيخ يصير شابا !
ـ وما الفائدة، ما دمت عاجزا عن إحضار أي شيء ؟! لن أقول له فقد صرت ذليلة بسببك !
ـ لا تقلقي يا زوجتي الحبيبة ستكافئين على هذا الإخلاص وأرجو أن تقولي لأبيك ما قلته لك.
فقالت له وجمعهم.
ـ من يحبني منكم يحضر إليّ التفاح المذكور الذي قطع سبع بحور، إذا أكله شيخ عاد شابا !
ـ نحن في خدمة مولانا، وسنحصل عليه.
في الطريق، كان امحند ذو الكرش على حماره كالعادة والذباب على رأسه.
ـ ابتعد أيها النتن ! ألا تعلم أن طلبات السلطان للرجال وليست لمثلك ؟!
ـ سر يا حماري، سر.. إلى السوق نتسوق كلّنا، ونحن أصهار الملك كلّنا.. سر.. سر..
ابتعدوا عنه. وطار في لمح البصر ليصل إلى موطن النسور، وأخذ يترقب ويلاحظ. فرأى عشّا فيه أفراخ جائعة ووالداها غائبان. اصطاد حجلة وسلّمها لها.
عاد والدهم دون أن يحظى بصيد ورأى أبناءه يأكلون فقال :
ـ والله لو يظهر هذا الذي أطعمكم لكافأته ولو طلب مني أحدكم !

ـ ها أنا ذا !

ـ ماذا تريد ؟!

ـ أريد أن تقطع بي سبع بحور، إلى بستان التفاح المذكور !

ـ وهل تعلم أن البستان يحرسه غول مفترس شرس ؟! لا قدرة لأحد على مواجهته ؟!

ـ أيا كانت أخطار السفر، لابد أن أذهب !

ـ طيب. هات معك أربع عشرة قطعة من اللحم، تعطيني واحدة بعد كل بحر.

وضع اللحم في جرابه وانطلقت الرحلة. طار به في الجو بسرعة البرق، وبعد كل بحر يطعمه قطعة لحم.

أنزله قرب البستان وقال النسر :

ـ راقب مجيئي هنا مع فجر الغد، إن لم أجدك أعود دون انتظارك فحذار !

دنا من البستان وأطل داخله، ورأى وسطه شجرة تفاح واحدة، تحيط بها أشجار أخرى من نوع لا يعرفه، وأسر قلبه جمال الأشجار وتناسقها ونظافة البستان. كما أبهرته روعة التفاحات

الشهية التي لم ير مثلها في اكتمال نضجها وسحر لونها وجاذبية مظهرها. حتى كاد ينسى مهمته. ثم انتفض وأفاق من شروده وطاف بنظره في البستان ورأى وسطه كوخا ضخما.

حدّق في المكان فلم ير أحدا. استغرب ألا يكون الغول حارسا ! اقترب بحذر، وصعد على الشجرة. وأحسّ أنّها تتململ. شرع في القطف ومع التفاحة الثانية بدأت الشجرة ترتج وتحدث صوتا غريبا. اشتدّ به الفزع، نزل منها وقفز خارج البستان. وفي لمح البصر وصل الغول واشتمّ رائحة غريبة فلازم المكان لا يفصله عنه إلا مسافة قصيرة.

ظل ينتظر انصراف الغول ولم يتحرك هذا الأخير. وحتى حين يذهب إلى كوخه يبقى بالباب، وعينه لا تفارق البستان.

الوقت ينقضي بسرعة غير عادية ولم يجد وسيلة للاقتراب من الشجرة ففهم تحذير النسر، وتأكد أنه لن ينجو من هذه التجربة إن لم يسرع في إيجاد حل لوضعه.

وهو في مكانه قلق حائر وقف بجانبه قرد صغير :

ـ أعطني قطعة من التفاحة !

التفت إليه في استغراب !

ـ اذهب عنّي من فضلك ! أنا أريد المزيد منه، وأنت تطلب مني أن أنقص مما عندي ؟!

ـ إما أن تعطيني منه وإما أصيح ويصيح معي كل من أعرفهم إذا اقتربت من البستان!

ـ ورأى أن لا خلاص منه إلا بتلبية طلبه وعليه، بعد ذلك، أن يجني ضعف ما يحتاج إليه ليسكت بنصفه هذا القرد اللعين!

ـ خذها كلّها، أيّها المحتال !

استلمها القرد مقهقها وانصرف وظل بعيدا عنه يراقبه.

ابتعد الغول لحظة، حاول التسلل وما كاد يضع رجله في البستان حتى اهتاجت أشجار البستان كلها، والصوت يسمع من بعيد. قفز خارج البستان في آخر لحظة.

ولم يطل به الحال حتى عاد إليه القرد. وحين رآه انزعج وعظم غيظه.

ـ ماذا تريد أيضا ؟!

ـ أريد تفاحة كاملة !

ـ أنت تريد هلاكي! لماذا لا تأخذه من الشجرة فهو كثير ؟!

ـ إذا دخلت أموت حتما، فالأشجار تفطن لحركتنا ! وقد افترس الكثير من أهلي قبلي.

ـ إذا أنجزت ما أطلبه منك أعطيك تفاحا كثيرا !

ـ ماذا تريد أن أنجزه ؟!

ـ تجمع الحجارة وتحملها إلى تلك الربوة ثم تفعل مثلي مع بداية

اختفاء ضوء النهار.

ـ ماذا أفعل ؟!

ـ سأوضح لك ذلك في حينه وأتمنى أن تنجح حيلتي، وإلا عليّ أن أجد طريقة أخرى خلال الليل.

ـ هذا بسيط.

اقترب الظلام والغول لا يترك باب كوخه. جلس هارون الرشيد مع القرد، وهذا ينتظر ما يطلبه منه.

أخذ حجرا وضرب به الغول، فوقعت على رأسه وفعل القرد مثله.

التفت الغول إلى مكان انطلاق الحجارة ورآهما وبدأ يبحث عن شيء يرجمهما به. ووقعت عليه حجارة أخرى فرد عليهما بالتفاح. يقطف ويضرب فقال هارون الرشيد للقرد :

ـ تلقّف التفاح في الهواء قبل سقوطه على الأرض وسلّم لي بعض الحبات وأنا أتكفل بضربه.

الغول يقذف بالحبات والقرد يمسكها، والرجل يأخذ منه بعضها ويضعها في الجراب. انقضى جزء من الليل، ولم يتوقف عن رميه. جمع ما يريد، ومازال يرميه بالحجارة فتوّقف الغول عن الرد، وقد اشتدّ انزعاجه منهما وجرى نحوهما.

طلب هارون الرشيد من القرد أن يذهب في اتجاه وهو في اتجاه آخر.

ولكن الغول اقتفى أثر الرجل. فلّف به عبر الهضاب محاولا إبعاده عن مكان موعده مع النسر ثم رجع وجرى إلى الموعد، وكان النسر قد أطل على المكان وكاد ألا يلحق به. والغول غير بعيد عنه.

طار به عائدا وهو يطعمه اللحم بعد كل بحر يقطعونه، ولانفعاله لم يركّز على حركة يده فعلقت قطعة بالأخيرة وسقطت دون علمه، وحين أراد تقديم السابعة وجد الجراب خاويا، فأخذ سكينه وجزّ

قطعة من فخذه.

أكلها النسر وقال :

ـ آه.. هذه مالحة ! إنّها من لحمك ! لولا معاهدتي لك لألقيت بك في اليم !

داوى جرحه وقصد السوق متنكرا ينادي على بضاعته :

ـ هيا.. هيا.. من يشتري التفاح المذكور الذي قطع سبع بحور !

فجاؤوا إليه :

ـ مرحبا بك يا حبيبنا ! كدنا نيأس من العثور عليك ! لقد بحثنا عنك مدة طويلة. ما ثمن تفاحك ؟!

ـ أنا لا أبيع بالنقود يا أخي !

ـ وفيم ترغب إذن ؟!

ـ أريد الأصابع الصغيرة في أقدامكم !

ـ أهذا كل ما تريد ؟! بسيطة. ستغطيها الجوارب والنعال !

ـ وعادوا مسرورين مفتخرين بنجاحهم. في الطريق وجدوا أبا الكرش على حماره وسخروا منه كالعادة مقهقهين.

غضبت زوجته منه ولامته على عجزه وأنّها صارت مذلولة يشمت بها القاصي والداني، ولم تعد قادرة على رفع رأسها أمام والديها وأهلها.

مرّت أيام أخرى وانتهت سنوات الذل وقال لزوجته :

ـ قولي لأبيك يقيم حفلا لأصهاره ليشكرهم على وفائهم !

ـ كيف تطلب منه أن يشكر أصهاره وأنت لن تنال منه شيئا ؟! ألم يكفك ما لحق بي من الإهانة ؟!

ـ بعده لن أطلب منك شيئا آخر، افعلي وسترين ما يسرك !

جمعهم الملك، ليشكر أصهاره الرجال الذين أظهروا له الوفاء والمحبّة وبرهنوا على شجاعتهم.

ودخل امحند أبو الكرش إلى المجلس تحت نظرات اشمئزاز

الجميع الذين أرادوا طرده للرائحة التي تنبعث منه :

ـ ألا تستحي من وضعك لتقترب من مجلس الملك ؟!

ـ انصرف أيّها النتن !

وقال الملك :

ـ دعوه اليوم، إنّه يوم فرح، وهو صهري على كل حال! أعطوه مكانا بعيدا عنّا !

فقال :

ـ لا حاجة بكم إلى هذا العناء كلّه، يا سيدي الملك وحمي العزيز !

واستغربوا كلامه حين لاحظوا أن نغمته قد تغيّرت وفي صوته ثقة بالنفس عظيمة

ـ سيدي الملك، أصهارك هؤلاء كلّهم ضعاف ليس في إمكانهم العثور على عشّ فوق شجرة عارية ! ويعتمدون على مالهم لا على جهدهم للحصول على بغيتهم، وما أحضروه لك اشتروه منّي ! أنا الذي تعبت للحصول عليه وبعته لهم.

ـ فصاح فيه القوم مقهقهين ساخرين :

ـ اخرس أيّها المحتال النتن ! أنت تبيع ما شقينا للحصول عليه ؟!

وقهقهوا ساخرين، واهتزّت القاعة من ضحك الحضور العالي إلا الملك الذي ابتسم متعجّبا من جرأته :

ـ هل تدرك خطورة ما تقول ؟! وهل لديك دليل على اتهامك هذا ؟! لقد وضعت رقبتك تحت السيف يا صهري ! ولا نجاة لك اليوم إلا بالبرهان !

ـ لدي الدليل يا سيّدي !

ونزع الكرش والمصران وعدل شعره فلمعت على محيّاه هيبة نادرة وقال :

ـ سيدي الملك، لقد أحضروا الماء الذي تتناطح من أجله الجبال!

أليس كذلك ؟!

ـ بلى !

ـ أنا الذي بعته لهم، بعد أن تعرضت للهلاك من أجل استخراجه من قلب الجبل وثمنه أطراف آذانهم، وها هي ! قل لهم ينزعون العمائم !

ـ كفاك كذبا ! هذه طارت بالسيوف أثناء المعركة الطاحنة لأخذ الماء !

ـ وكيف وصلت إلى جرابي يا محترمين ؟!

ـ سيّدي السلطان، أحضروا حليب اللبؤة في جلد ابنها، أليس كذلك ؟!

ـ بلى !

ـ أنا الذي بعته لهم. وثمنه أصابعهم الصغيرة ! وها هي ! قل لهم ينزعون القفازات عن أكفّهم.

انتعشت زوجته مما رأت وتطاولت بجيدها أمام أخواتها اعتزازا وفخرا والدهشة لم تفارق وجه الملك. ولم يجد الأصهار حيلة سوى التململ في أماكنهم وقد أدركوا أنّهم فضحوا فضحا شديدا.

ـ سيّدي السلطان، هل أحضروا التفاح المذكور ؟!

ـ نعم !

ـ أنا الذي بعته لهم ! وثمنه الأصابع الصغيرة من أقدامهم! فلينزعوا نعالهم !

واعترضوا على نزع الحذاء أمام سيدهم !

ـ أيّها الوقح ! كيف تطلب منّا نزع أحذيتنا في حضرة السلطان العظيم المحترم !

ـ ولكن الملك من شدة غضبه أخرج سيفه وهدّد من يرفض بقطع رأسه حينا.

ـ فانكشف أمرهم وقال الملك :

ـ من أنت أيّها الرجل ؟!

ـ أنا سلطان مثلك، حكمت عليّ الأقدار أن أعيش سبع سنين متنكرا، معزولا عن جاهي وثروتي.

ـ وما يشفي غليلك في هؤلاء الشامتين بك ؟!

ـ ليس لي أي طلب ! افعل ما تراه مناسبا لك. أما أنا فقد انتهت سنوات عذابي، وهذا يكفيني!

ـ أنت ملك بحق ! شهم وكريم !

أعاد له الاعتبار، وقدّمه على الآخرين.

حان يوم عودته إلى مملكته، استأذن الملك في الرحيل، فأكرمه بتسع وتسعين من الإبل محملة بالحلي واللباس الثمين والأحجار الكريمة.

أخذ زوجته والإبل وانطلق في قافلة ترى على مسافات بعيدة. ولما وصل إلى (ثالة) التي غرقت فيها ناقته انحنى ليغرف الماء للشرب. فعلقت بأصابعه شعرة انتزعها جاذبا إيّاها فخرجت الناقة بما حملت فقال :

ـ عجبا ! حين رحلت قطعت الحبال، وحين عادت جلبتها شعرة !

اعـيـاش و اولاش

أمـاشـهـو !

عن محتالين يعيشان على سلب أموال غيرهما وممتلكاتهم دون وازع ولا تأنيب ضمير. أحدهما اسمه (اعياش) والآخر اسمه (أولاش).

اتجها يوما إلى سوق واحدة، ولم يكن يعرف أحدهما الآخر بعد، حمل الأول كيسا من التين الجاف وحمل الآخر كيسا من الدقيق. وعرضا بضاعتهما ولكن لم يبيعا منها شيئا طيلة مدة افتتاح السوق. كل زبون يقترب من البضاعتين ينسحب دون أن يأخذ منها شيئا.

انفض السوق وافترق الناس ووجدا نفسيهما وحيدين، يقابل الواحد منهما الآخر بكيسه. وظلا ينظر أحدهما إلى الآخر مدة ثم قال أحدهما :

ـ ما رأيك يا أخي، لو نتبادل سلعتينا ؟ أنا لم أبع كيسي وأنت كذلك !

ـ موافق، وهكذا نعود إلى منزلينا كل بسلعة جديدة !

أخذ كل منهما كيس الآخر وهو مسرور، وكلّ منهما مقتنع بأنّه هو الرابح في الصفقة.

في البيت، فتح (اعياش) الكيس فوجد كمية من التين على السطح وباقي الكيس كلّه روث الحمار.

ـ آه، ابن الحرام ! لقد احتال عليّ !

وحين فتح (أولاش) الكيس، وجد على السطح كمية من الطحين والباقي كلّه رماد

ـ آه، ابن الحرام ! لقد خدعني !

ويوم السوق الموالي، ظل كلّ منهما يبحث عن الآخر والتقيا :

ـ ما اسمك يا أخي ! لقد كنت ماهرا !

ـ وأنت كذلك كنت ماهرا ! اسمي اولاش

ـ واسمي اعياش !ـ وما باع اعياش من اولاش !

ـ ما رأيك في العمل معا ؟!

ـ موافق. ولنبدأ من الآن.

وتجولا في السوق يراقبان المتسوقين. وبعد فترة قال (اعياش)

ـ انظر ذلك البرنس الجميل الذي يرتديه الرجل، سآخذه منه دون أن يعلم !

ـ وكيف تفعل ذلك ؟! إنّه لا ينزعه عن كتفيه ! فمنذ فترة وأنا أراقبه.

ـ لا تشغل بالك ! افعل ما أقوله لك.

تجولا في السوق وراءه، حتى عرف اسم قريته والطريق الذي يسلكه وقال لرفيقه :

ـ تعالى نسبقه، ونحضر له كمينا لن يفلت منه !

تسوّق الرجل وأخذ طريق العودة إلى داره ممتطيا حصانه. ولما وصل منتصف الطريق سمع صياحا في منعرج :

ـ يا مؤمنين ! أنقذوني ! أنقذوني ! لقد عرّاني قاطع طريق !

أسرع بحصانه ورأى رجلا عاريا كلّية ليس على بدنه أية قطعة قماش.

ـ يا ستار ! يا حفيظ ! ما الذي حدث لك يا رجل ؟!

ـ أخذ ثيابي أحدهم ! اللعين ! هدّدني ونزع ثيابي كلّها، يا ويحي ! كيف أمشي في الطريق الآن ؟!

والتفت الرجل يمشط الطريق بعينيه، ورأى رجلا آخر على بعد منهما في منعرج يحمل ثيابا على كتفه. نزع برنوسه وأعطاه للآخر قائلا :

ـ استر جسدك، وسأعود بثيابك بعد قليل.

أمسك البرنوس ووضعه عليه بينما همز الرجل حصانه في أثر الآخر، ولكنه لم يجده وكأن الأرض ابتلعته! رجع إلى الرجل فلم يجده، وفهم الحيلة فصاح بغضب :

ـ لعنة الله عليك يا محتال !

التقى السارقان في المكان الموعود، وراحا يقهقهان ويسخران من حالة الرجل.

استأنفا سيرهما. ورأيا فلاحا يحرث الأرض قال أولاش :

ـ أترى ذلك الفلاح ؟! سنأخذ ثوريه دون أن يعلم !

ـ وكيف نفعل ذلك وهو يحرث بهما ؟!

ـ افعل ما أقوله لك. أعطيني كمية التين التي معك واذهب إلى ثالة التي تراها هناك، وتصنّع غسل برنوسك، والباقي أقوم به أنا، سأسوق واحدا وأنت تأخذ الثاني.

افترقا واتجه (أولاش) إلى الفلاح.

ـ السلام عليكم !

ـ وعليكم السلام !

ـ العمل في هذا الجو متعب!

ـ إنّها ضرورة العيش، وإذا لم يتعب الإنسان في العمل كيف يحصل على رزقه ؟!

دخل معه في حوار وهو يطعمه من التين التي معه والفلاح يسايره، يأكل ويعمل فعطش.

ـ لقد عطشت يا صديقي، ولم أحضر معي قربة الماء !

ـ ولكن الماء موجود ! لقد رأيت رجلا يغسل برنوسه في ذلك المنبع !

ـ أصحيح ما تقول ؟! من فضلك احرس الثورين ريثما أشرب وأعود.

ذهب الفلاح إلى ثالة. ففك (أولاش) رباط ثور وأخذه.

وحين وصل الفلاح إلى ثالة لم يجد فيها ماء والرجل منهمك في غسل برنوسه !

ـ يا للعجب ! هل أنت مجنون يا رجل ؟ تغسل برنوسك بلا ماء ؟!

ـ المجنون هو أنت ! تحرث بثور واحد !

ـ أنا أحرث بثور واحد ؟! إن ثوريّ نادران في المنطقة !

التفت، فرأى ثورا ناقصا، وصاح جاريا :

ـ من فضلك، احرس هذا الثور حتى ألحق بالسارق وأعود.

وجرى خلف السارق ولم يلحق به، وعاد ليجد الثور الثاني قد سرق. غضب الفلاح ووقف ممسكا بلطته.

ـ الرجل الذي يدعي الشجاعة يقترب من المحراث ! أنا هنا في

انتظاره !

التقى الرفيقان، باعا الثورين واستمرا في بحثهما عن الفرائس.

نزل عليهما الليل فدخلا كوخا للنوم. في منتصف الليل خرج (أولاش) لقضاء حاجة، وكان الكوخ على حافة منحدر عميق، ولم ينتبه لنفسه فهوى فيه ومات.

استيقظ اعياش في الصباح الباكر ولم يجد رفيقه فخرج يناديه :

ـ آولاش ! أولاش !

وسمعه صياد فغضب منه :

ـ أتدعو عليّ أيها الصعلوك ؟!

أخذ عمودا وأشبعه ضربا حتى اختلطت عليه الأمور

ـ وكيف أنادي إذن ؟!

ـ قل : عشرة عشرة في اليوم !

وانطلق (اعياش) وهو ينادي :

ـ أعشرة عشرة في اليوم ! أعشرة عشرة في اليوم !

والتقى جماعة من الرجال يحملون نعشا، يكبرون وينتحبون، سائرين في اتجاه المقبرة وهو مازال ينادي :

ـ أعشرة عشرة في اليوم !

وخرج من الوفد الجنائزي رجلان قويان، رفع كل منهما عصا واتجها إليه :

ـ ألم يكفك موت واحد لتدعو علينا بموت عشرة ؟! خذ أيّها الصعلوك !

وضرباه حتى تلوى من الألم وقال بصوت واهن :

ـ وماذا أقول إذن ؟!ـ

ـ قل : الصبر لكم ولعائلته ! الصبر لكم ولعائلته !
وانطلق ينادي :
ـ الصبر لكم ولعائلته ! الصبر لكم ولعائلته !
ـ واستمر ينادي، ومر بقرب موكب زفاف عروسة، يغنّون ويضربون على الدفوف، وهو مازال ينادي :
ـ الصبر لكم ولعائلته !...
وقصده أحدهم بهراوة.
ـ يا فتّاح ويا رزّاق ! ماذا تقول يا رجل ؟!
وأعاد عليه النداء. فأشبعه ضربا.
ـ وماذا أقول إذن ؟!
ـ قل : يا وجه السعد والربح في دارك !
وأخذ يعيد النداء بما قاله الرجل. والتقى رجلا تطارده خنزيرة بريّة يعدو ويطلب النجدة و(أعياش) ينادي :
ـ أيا وجه السعد لك ولدارك ! يا وجه السعد والربح في دارك !
فقال الرجل :
ـ بعد أن أتخلّص منها وأعود ترى ما أصنعه بك !
فلت الرجل من الحيوان ورجع إليه لاهثا وفي يده عصا :
ـ ماذا كنت تقول أيّها المعتوه ؟!
وأعاد عليه كلامه فأوقعه تحت ضربات العصا :
ـ وماذا أقول إذن ؟! ماذا أقول، يا إلهي ؟!
ـ قل : الله ينجيك منها، ويوقعها في جرف عال ! الله يسقطها في جرف عال !
استمر في صياحه ومناداته :
ـ الله يسقطها في جرف عال ! الله يسقطها في جرف عال !
فإذا بفلاح يقود بقرة حلوبا، جميلة المنظر، مكتنزة اللحم، كبيرة

الجسم. وهو مازال ينادي :

ـ الله يسقطها في الجرف العالي !

وجاء إليه الرجل، متعجبا من كلامه :

ـ ماذا تقول أيّها الحسود ؟!

وكرّر عليه كلامه. فأشفى غليله منه ضربا وركلا.

ـ وماذا أقول، يا إلهي ؟! ماذا أقول ؟!

ـ قل : احلب ويحلب أولادك ! احلب ويحلب أولادك !

وراح يردد بصوت ضعيف وقد أخذ منه الضرب كلّ مأخذ.

ـ احلب ويحلب أولادك ! احلب ويحلب أولادك !

وراح يسير متمايلا وهو يردد جملته فسمع صوتا تحت دغل

ـ بعد أن أنتهي ترى ما يحصل لك !

وكان الصوت من أحدهم أصابه إسهال عنيف. وبعد فترة قصيرة وقف أمامه ممسكا بخناقه :

ـ ماذا كنت تقول أيّها التعس ؟!

كرّر عليه قوله فنزل عليه لكما وركلا. وهو غير قادر على الوقوف سأل ضاربه :

ـ وماذا أقول ؟!

ـ يبس حيث وضعته ! حيثما وضعته يبس !

واصل مشيه وهو ينادي بما بقي له من قوة :

ـ حيث وضعته يبس !

ومرّ على أحدهم يغرس فسائل التين، وسمعه

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ! هل هذا مجنون ؟!

وترك الحقل مقبلا عليه :

ـ ماذا تقول أيّها المريض ؟!

أعاد عليه كلامه فأشبعه ضربا.

ـ وماذا أقول ؟!
ـ قل : تخضرّ وتكبر وتثمر تينا قيس أقداح !
أخذ ينادي :
ـ تخضر وتكبر وتثمر تينا قيس أقداح !
التقاه أحدهم وقد تورمت عيناه مرضا، يمشي ويمسح مقلتيه فسمعه واشتد غضبه فقصده : ووقع عليه بالضرب والركل فاستعطفه في وهن :
ـ وماذا أقول إذن !
ـ قل : جفت لك ! جفت لك !
وأخذ ينادي كما قال له. وكان أحدهم يصعد مرتفعا من الأرض عظيما استغرب أقواله، ونزل إليه وضربه ضربا مبرحا.
ـ وماذا أقول إذن ؟!
ـ قل : اجتزت القمة فورا ! وقعت في القمة فورا !
وأخذ ينادي بصوت واهن. وكان على قمة شجرة عالية رجل يقطع المران فنزل إليه
ـ يا وجه النحس ! ماذا كنت تقول ؟!
وضربه شر ضرب. أطلقه الرجل وهو لا يقوى على الكلام وصمت خوفا من أن يطلب منه النداء بما يسبب له في وقائع أخرى، وسحب بدنه ببطء والآلام تأكله من كل جانب ووجهه منتفخ.
دخل جامع قرية بما بقي له من قوة وتمدّد نائما، وهو بين الغيبوبة واليقظة انتصف الليل، فأيقظه الجوع الشديد، وهو لا يدري بما حوله. تلمّس الأرضية بجانبه ووقعت يده على قطعة مستطيلة ظنها خبزا فالتهمها، وكانت قطعة صابون لعطار نام بجانبه في الجامع.
وبعد مدة قصيرة اهتاجت أمعاؤه فزحزح جسمه إلى مقدمة

الباب وأفرغ ما في جوفه ثم عاد إلى النوم.

في الصباح الباكر استيقظ على نداء الإمام للصلاة. ثم تقدّم الإمام ليدخل إلى الجامع فداس غائط الرجل.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ! ما هذا ؟!

فقال (اعياش)

ـ حلال يا عمي الشيخ ! حلال !

ـ أأنت الفاعل، أيّها النتن ؟!

ولوّح بعصاه لتسقط على جسمه كالسهام الحارقة لما كان فيه من جروح وفرّ يصيح كالمجنون :

ـ يا آكل مال الغير انتظر الحساب العسير ! يا آكل بالسلب بصلك تقتلع مصرانك !

الذئب

أماشهو !

عن حجلة بنت عشّها تحت تينة.

ـ وهي تحضن بيضها فإذا بورقة تين كبيرة تسقط على رأسها.

قامت مفزوعة، وانطلقت تجري وتصيح :

ـ اهربوا، لقد سقطت السماء على الأرض ! ومن أراد النجاة فليأت معي !

التقت ذئبا :

ـ ماذا وقع أيتها الغبراء ؟!

ـ سقطت السماء على الأرض ! إن أردت النجاة تعالى معي.

فرافقها. والتقاهما الأسد يصيحان :

ـ من أراد النجاة فليأت معنا، لقد سقطت السماء على الأرض !

وانضم إليهما وجروا يبحثون عن مكان النجاة. ثم التقوا حمارا فرافقهم ثم فيلا، وأخذوا يجرون حتى استقرّ بهم المطاف في مكان شعروا فيه بالأمان. وكوّنوا أسرة. حدّد الأسد مهامهم.

الفيل يحفر ويحرث.

الغبراء تلد البيض للأسد.

الأسد يترأس المجموعة، والذئب مستشاره. وهما لا يشتغلان.

واستمر الحال على ذلك. إلى أن اشتدّ الجوع بالذئب، ولم يجد ما يأكله. فأرسى قراره على الحجلة. قصدها وقال لها محرّضا :

ـ ما أتعسك ! أخواتك كلّها تربي فراخها وتمرح معهم في الحقول، وأنت تلدين للأسد ! يأكل بيضك، ولن تتركي خلفا !

فامتنعت عن الولادة. قال لها الأسد :

ـ أيّتها الغبراء لماذا لا تلدين لي بيضا لآكله ؟!

ـ إيه ! أخواتي كلها تفرح بأولادها وتمرح معهم وتغنّي في الحقول، وأنا ألد لتأكل !

فقتلها. وقال للذئب :

ـ خذها يا امحند وادفنها في المخزن.

أخذها الذئب وانزوى بها ليتمتع بلحمها.

وبعد ثلاثة أيام اشتد به الجوع. فقصد الحمار :

ـ أيّها الحمار! ما أغباك ! إخوانك يمرحون في الحقول، وأنت صرت حمالا، تحمل الحطب والقرم لسيدك!

ولما أمره الأسد بالذهاب لإحضار الحطب، رد عليه :

ـ إيه..! إخواني في راحة، يمرحون ويرقصون، وأنا جعلتني حمالا، ولا أعرف طعم الراحة ولا أذوق متعة !

فضربه بقبضة واحدة وقتله :

ـ خذه يا امحند، وادفنه في المخزن ليوم الشدّة.

وأطال الذئب في العودة. ولما وصل، قال الأسد :

ـ لماذا أطلت يا امحند ؟!

ـ إيه يا سيدي ! لقد تعبت كثيرا في دفنه. أدفن الرجل تظهر اليد، وأدفن اليد يظهر الرأس، أدفن الرأس يظهر البطن..

وظل الحمار معلقا للذئب. يخرجون إلى الحقول للعمل، وبعد مدة، يصيح الذئب

ـ نعم ! أنا هنا ! أنا آت !

وينطلق جاريا، كأنّه سمع نداء، والأسد لم يسمع شيئا.

ـ ماذا حدث يا امحند ؟! على من تجيب ؟!

ـ عمّتي تناديني، ولد عندها طفل!

يستمر الذئب في الجري قاصدا جثة الحمار.

في اليوم الموالي، كرّر فعلته

ـ ماذا حدث يا امحند ؟!

ـ خالتي تناديني، ولد عندها طفل !

وحين أطل الأسد على مخزن الأكل وجده خاويا. استغرب انتهاء المؤونة، وليس معهم أحد غيرهم الثلاثة ! وكل منهم ينفي عنه السرقة ويتهم رفيقه. فقرّر الأسد أن يتمدّد جميعهم تحت الشمس، ويضع كل واحد منهم تحت مؤخرته قدحا، لينكشف الفاعل.

ولشدة الحرارة نام الأسد والفيل. أما الذئب فلدرايته بفعلته لم يغمض له جفن، وبقي حذرا يترقّب. ولما سال ما بأمعائه بدل قدحه بقدح الفيل، وعاد إلى مكانه متصنعا النوم.

استيقظ الأسد، وتفقد قدح الفيل فتيقّن أنّه المذنب وقتله.

ـ خذه يا امحند وادفنه.

أخذه وأبطأ في العودة.

استغرب الأسد طول مدة غياب رفيقه فذهب إليه في صمت، ووجده يقفزعلى بطن الفيل ويغني :

ـ الخزنة أكلها الذئب ودفع ثمنها الفيل البريء. المؤنة أكلها الذئب وعوقب الفيل دون ذنب اقترفه!

عند ذلك فهم الأسد ما وقع. زأر بصوت مرعب قائلا :

ـ آه ! يا ابن الحرام !

وهجم عليه ليقتله، ولكن الضربة وقعت على ذيل الذئب، إذ قفز بخفة من مكانه لما رأى الأسد.

ـ وأين تختفي يا ابن الحرام ؟! سأعرفك من ذيلك المبتور!

فرّ الذئب خائفا محتارا في كيفية إنقاذ نفسه، ثم اهتدى إلى حيلة.

غرس تينة قائلا :

ـ غرستك اليوم، تكبرين اليوم، تثمرين اليوم، وآكل تينك اليوم !

وكان ما أراد.

صعد على ربوة، وأخذ يصيح مناديا

ـ اجتمعوا يا إخواني الذئاب، فشجرة التين نضجت.. تعالوا يا إخواني، تينة الله نضجت..

انصبت عليه الذئاب من كل حدب وصوب، والتفّت حوله واشترط على من يصعد على الشجرة أن يربط ذيله إلى إحدى فروعها.

تسلّقت الذئاب، وربطت ذيولها إلى فروع الشجرة، وشرعت في الأكل. لما شبعت صاح صاحب القضية :

ـ ويحكم ! يا إخواني! اهربوا، جاء الأسد. اهربوا جاء الأسد !

قفزت الذئاب عن الشجرة. وبترت أذيالها كلّها.

ثم قصد الأسد وقال له ساخرا :

ـ كيف ستعرفني وسطها الآن ؟! وقد بترت أذيالنا كلّنا !

ـ أقسم بالله، أنني سأقضي على كل ذئب يقع بين يديّ، حتّى أمحو اسم الذئاب من الوجود ! وأطهّر الأرض من مكرها ورجسها!

وردّت عليه الذئاب بعواء استهزاء وتفرّقت في الغابة.

حكمة القنفذ

أماشهو !

يحكى أن رجلا عثر على ثعبان جمده الجليد. التقطه ووضعه في رأس برنوسه ليتدفأ. ومع مرور الوقت استعاد الثعبان وعيه ولكنّه بقي ضعيفا. مدّده الرجل تحت الشمس وأطعمه وشرّبه.

انتعش الثعبان، وقويت أوصاله، فقال للرجل :

ـ أنت شهم ويجب أن أشكرك، اقترب أقبّلك لقد أنقذت حياتي من الهلاك.

دنا الرجل منه قائلا :

ـ ما قمت إلا بواجبي.

وفي لحظة، التف الثعبان حول رقبة الرجل يريد خنقه.

ـ ما بك ؟! أتقتلني بعد أن أكرمتك هذا الإكرام ؟

ـ أتعتقد أنّك تتخلص من ذنوبك بإنقاذي ؟!

ـ إن ذنوب بني آدم لا تغسلها الأنهار ! وجزاؤك هو الموت !

ـ أرجوك، قبل أن تقتلني، أن نحتكم إلى المخلوقات التي نلتقي بها، فإن كان فعلي معك يستأهل الموت أقبله.

ـ أنا قبلت.

مشى الرجل يبحث عن منقذ، والثعبان ملتو حول عنقه. التقى ديكا. وقال للثعبان :

ـ لنسأل الديك.

أوقفه وشرح له المسألة :

ـ أيّها الديك العزيز، إن هذا الثعبان يريد قتلي بعد أن أنقذت حياته ودفأته وأطعمته. فاحكم بيننا، أأنا على حقّ أم هو ؟!

قال الديك :

ـ صرتُ الآن عزيزا عندك ! أنت تعزّني في القدور ! أنا أقضي الليل ساهرا من أجلك، طول حياتي، لأعلن بداية النهار لتنجز أعمالك. وتنتفع من بيض زوجاتي، وتأكل أبناءنا، ثم تذبحني لضيوفك ليعلو شأنك! ومع هذا كله تقتّر عليّ في الأكل، وتعزّ عليّ حبات من القمح والشعير وتحرّمها عليّ ! وأنت تراني أقتات من المزابل. وجئتني الآن تستعطفني بعد أن أوقعت نفسك في الموت ؟! ودون شك، نويت استخدام الثعبان في إحدى مكائدك، لولا انقلابه عليك. أنت لا تستأهل الرحمة ! اخنقه يا ثعبان واضغط جيّدا.

وزاد الثعبان في اللفّ فصاح الرجل :

ـ انتظر لم نسمع بعد رأي الآخرين.

والتقى حمارا وقصّ عليه الأمر مترجيّا منه الحكم بالحق والعدل. فقال الحمار مقهقها :

ـ ها ها.. ها ها.. ما ألطفك في هذا المنظر يا بني آدم ! لقد أدخلت السرور إلى قلبي، أنا الكئيب طول حياتي. ألا تتذكّر فعلك معي ؟! تحمّلني الأثقال التي لا أطيقها. وتجبرني على المشي بمهمازك. أبعدُ عنك التعب وأقصّر لك المسافات، وأنت تعزّ عليّ العشب الطيب لتبيعه ! تشتاق نفسي لقليل من الشعير أراه في أكداس عظيمة، وأشمّ رائحته وهو على ظهري، ولا أذوقه.

وتقذفني بقليل من التبن الحقير ! وتصفني بشتى نعوت الغباء لأنّني أعمل بجد وجهد ولا أشتكي، فالجاد والمجتهد عندك غبي وحقير! تترك زريبتي متسخة ولا تفرشها ولو بالتبن، أضع عليها بدني المرهق وتلسعني برودتها. ولا تفّكر يوما في تنظيف جسمي وتطهيره من الحشرات التي تظل تزعجني، ولولا التمرّغ في التراب لأصابني الجنون. وبوقاحة تواجهني الآن لأشفق عليك ؟! اضغط عليه أيّها الثعبان، يستأهل كل عقاب !

وضغط الثعبان أكثر، وترجاه الرجل لسماع غيره.

التقى ثورا. و قص عليه عسره ومشكلته راجيا منه الحكم بالعدل فقال الثور :

ـ أنت تأمل في العدل ؟! ومتى كنت عادلا أيّها المجرم ؟! اتخذتني عبدا، أحرث لك السهول، وقمما لا أثبت عليها إلا بشق النفس، ولا أرى من حرثي شيئا، فأنت تستولي عليه وحدك. وإذا عجزت عن العمل لصعوبة الأرض أو لإرهاق أصابني تخرج مهمازك وتثقب بدني بلا رحمة. وفي أفراحك تجزّ رقبتي، أيّها المجرم ! ثم تقطع جلدي لمنافعك، لتستمر في تعذيبي. أنظر إلى رجليك وقل لي : ممّ صنعت كوثك ؟! وبوقاحة تطلب منّي إنقاذك ؟! أنت لست أهلا للشفقة. اضغط عليه أيّها الثعبان !

وضغط الثعبان أكثر، وترجاه الرجل للاستماع إلى غيره، وطلب أن يكون من أهل الغابة.

أوقف ذئبا، وقصّ عليه حاله، وترجاه أن يحكم بالعدل بينه وبين الثعبان. فقال الذئب :

ـ يا الله ! ما أسعد هذا اليوم ! الإنسان يحتكم إلى الذئب ! ما أغربك أيتّها الدنيا ! وتنتظر مني أن أحكم لصالحك أيّها المحتال الكذّاب ؟!

ـ أنت أعلنت حربا طاحنة عليّ وعلى نسلي، لا أستطيع أن

أخرج للصيد دون التعرض للأخطار، ولا يهمك مصير أولادي إن ماتوا جوعا، بل تفرح كثيرا حين تعثر على جثة أحدهم، وتشفي غليلك بمطاردتنا والقضاء علينا، كأننا نحن أسباب مشاكل الدنيا كلّها، أو نحن أسباب مشاكلك التي تنتج عن تصرفك المتهور. وحيثما مررت تصيح (الذئب.. الذئب، اقتلوه) عجبا ! ومع هذا كلّه تلصق بي تهما عظيمة أنا برئ منها، وتنسب إليّ كل فعل قبيح ! واتخذتني مثلا في المكر والخداع والاحتيال، والأرض لا يقطنها محتال أفظع وأقبح منك أنت ! وخراب الأرض لا يكون إلا على يدك أيّها الأناني الجشع. اضغط أيّها الثعبان فهو لا يستأهل الرحمة !

يضغط الثعبان قائلا :

ـ الآن لم يبق لك عذر للانتظار.

ـ تمهّل، لا يكفي رأي حيوان برّي واحد، يجب أن نسمع غيره.

وافق الثعبان والتقى قنفذا وخصمُه حول رقبته يهيّئ نفسه لإنجاز مهمته.

قصّ الرجل على القنفذ الحادثة وطالبه بالعدل في حكمه، رفع القنفذ رأسه، وحدّق فيهما بعينيه الصغيرتين، ثم أحنى رأسه ليستمر في السير، قائلا :

ـ المشكلة مشكلتك، لا تعنيني أنا. سلّمت رقبتك بيدك، فأنقذها بنفسك وحدك ! لماذا تريد مني أن أحشر نفسي في مأزق لم أتسبب فيه ؟!

ـ أرجوك أن تحكم بيني وبينه، لقد غدر بي بعد أن أحسنتُ إليه.

توقّف القنفذ والتفت إليهما ثم قال للرجل :

ـ هو صديقك، أنت الذي اخترته وأنا غريب عنكما فكيف أأمن

نفسي من خطركما وغدركما بعد إصدار حكمي ؟!

فعاهده الرجل بعدم إيذائه وفعل ذلك الثعبان بدوره. عاد القنفذ إليهما وقال :

ـ طيب، أرجو ألا تتنكّران لعهدكما.

اعتدل في جلوسه ثم قال :

ـ من قانون محكمة بني قنفذ ألا تكون بالوقوف بل بالجلوس فاجلسا لأسمع خصومة كل منكما وأدلته.

نزل الثعبان عن رقبة الرجل وتحرّك للاعتدال في الجلوس فغمز القنفذُ الرجل وقفز هذا والتقط عصا كانت بقربه وشرع في قتل الثعبان. وفي ذلك الحين فرّ القنفذ واختفى في دغل.

بعد أن قضى الرجل على خصمه، التفت باحثا عن القنفذ وعندما لم يعثر عليه قال متحسّرا

ـ آه..! لقد ضاع عشائي الدسم فقد كان قنفذا سمينا.

الفهرس

مقدمة 09
الطائر الغرّيد 13
تذّكر يا حمام 20
الزهر المشتعل 24
لونجا 30
سانطا 36
امقيذش 46
ابن الأخيرة 53
بقرة اليتاما 57
تسع وتسعون أخا 62
غصن الوحوش 69
الحطّاب والغيلا 74
الفستان الراقص 83
عليّ الثعبان 88
الحبة الناطقة 101
صاحب اللباس الأبيض..... 105
هارون الرشيد 113
اعياش و أولاش 127
الذئب 135
حكمة القنفذ 139